الدكتورة غراء حسين مهنا

الشَّعرة الذَّهبية

وقصص أخرى

الشركة المصرية العالمية للنشر
لونجمان


مكتبة لبنان ناشرون

الشَّعرة الذَّهبية

وقصص أخرى

إشراف : وجدي رزق غالي

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون

ص.ب : ١١-٩٢٣٢

بيروت - لبنان

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى: ١٩٩٧

إعادة الطباعة: ٢٠١٢

رقم الايداع ١١٣٠٩ / ١٩٩٦

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٢٣١ - ٤

رسوم : نسيم نصيف

طبع في مطابع النوبار ، القاهرة



الشَّعرة الذَّهبية

وقصص أخرى

الدكتورة غراء حسين مهنا

مكتبة لبنان ناشرون   الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

الشَّعْرَةُ الذَّهَبِيَّةُ

خَرَجَتْ ياسَمين، كَعادَتِها كُلَّ صَباحٍ، مَعَ مُرَبِّيَتِها؛ لِتَلْعَبَ في الغابَةِ القَريبَةِ مِنْ مَنْزِلِها. كانَتْ تَقْضي هُناكَ أَجْمَلَ الأَوْقاتِ، تَسْتَنْشِقُ عَبيرَ الزُّهورِ، وَتَتَحَدَّثُ إلى الأَشْجارِ، وَتَجْري وَراءَ الفَراشاتِ وَتُحِسُّ بِأُلْفَةٍ شَديدَةٍ مَعَ عَناصِرِ هَذِهِ الطَّبيعَةِ الجَميلَةِ، كَأَنَّها زَهْرَةٌ مِنْ زَهْراتِها، أَوْ فَراشَةٌ مِنْ فَراشاتِها.

شُغِلَتِ المُرَبِّيَةُ عَنْها بِالقِراءَةِ، وَابْتَعَدَتْ ياسَمين، وَهِيَ تَقْفِزُ وَتَتَواثَبُ هُنا وَهُناكَ، حَتّى فَقَدَتِ الطَّريقَ إِلى حَيْثُ تَجْلِسُ مُرَبِّيَتُها. وَلَمْ تَتَنَبَّهْ ياسَمين إِلى ذَلِكَ في بادِئِ الأَمْرِ؛ فَقَدْ كانَتْ مَشْغولَةً بِكُلِّ ما حَوْلَها: تَبْتَسِمُ لِلزُّهورِ، وَتُصْغي إِلى عَزْفِ الرِّياحِ، وَتَتَمايَلُ طَرَبًا مَعَ

الأَشْجارِ، وَتُغَنّي مَعَ الطُّيورِ - حَتّى بَدَأَ الظَّلامُ يُسْدِلُ أَسْتارَهُ عَلى المَكانِ، فَشَعَرَتْ ياسَمين بِالوَحْدَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَأَخَذَتْ تَبْحَثُ عَنْ مُرَبِّيَتِها أَوْ عَنِ الطَّريقِ إِلى مَنْزِلِها، فَلَمْ تَسْتَطِعْ إِلى ذَلِكَ سَبيلًا، فَانْخَرَطَتْ في البُكاءِ، وَراحَتْ تَبْكي حَتّى غَلَبَها النُّعاسُ.

فَرَغَتِ المُرَبِّيَةُ مِنْ قِراءَةِ كِتابِها، وَتَذَكَّرَتْ فَتاتَها الَّتي شُغِلَتْ عَنْها، وَتَلَفَّتتْ حَوْلَها فَلَمْ تَجِدْها.. نادَتْ فَلَمْ تَسْمَعْ لِندائِها جَوابًا.. هَبَّتْ مَذْعورَةً خائِفَةً. راحَتْ تَبْحَثُ عَنْها حَتّى أَخَذَ اللَّيْلُ يُرْخي عَلى المَكانِ أَسْتارَهُ، فَقالَت في نَفْسِها: «لَعَلَّها رَجَعَتْ إِلى المَنْزِلِ.»

عادَتِ المُرَبِّيَةُ إِلى المَنْزِلِ مَلْهوفَةً لاهِثَةً فَلَمْ تَجِدِ الفَتاةَ.

أَسْرَعَ الجَميعُ يَبْحَثونَ في الغابَةِ عَنْ «ياسَمين» لَكِنَّهُمْ عادوا خائِبينَ، وَرَجَعوا مَحْسورينَ، وَخَيَّمَ الحُزْنُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعينَ.



اِسْتَيْقَظَتْ ياسَمين مَعَ أَوَّلِ ضَوْءٍ لِلصَّباحِ، وَهيَ تُحِسُّ الجوعَ يَقْرُصُ أَمْعاءَها، فَاقْتَرَبَتْ مِنْ شَجَرَةٍ لِلْفاكِهَةِ كَبيرَةٍ، عَلَيْها ثِمارٌ مُغْرِيَةٌ جَميلَةٌ، وَحاوَلَتِ الحُصولَ عَلى واحِدَةٍ؛ وَلَكِنَّ الشَّجَرَةَ كانَتْ عالِيَةً، تَحَيَّرَتْ ياسَمين ماذا تَفْعَلُ؟ وَهِيَ تَكادُ تَموتُ جوعًا، وَإِذا بِالأَغْصانِ تَتَمايَلُ وَتَدْنو مِنْها، حَتّى تكونَ في مُتَناوَلِ يَدِها، فَتَقْطِفَ ياسَمين مِنْ ثِمارِها الواحِدَةَ تِلْوَ الأُخْرى، وَتَأْكُلَ حَتّى تَشْبعَ.

فَكَّرَتْ ياسَمين في مَكانٍ تَتَّخِذُهُ مَنْزِلًا، تَأوي إِلَيْهِ، وَيَقيها شَرَّ البَرْدِ، وَإِذا العَصافير تَأْتي مِنْ كُلِّ مَكانٍ، تَحْملُ في مَناقيرها القَشَّ وَالأَعْشابَ وَتَحُطُّ فَوْقَ الشَّجَرَةِ



العالِيَةِ،
وَتُفْرِغُ
ما تَحْمِلُهُ فَوْقَها،
ثُمَّ تطيرُ مِنْ جَديدٍ.
مَرَّتْ ساعاتٌ، وَياسَمين
تُراقِبُ العَصافيرَ، وَلا تَعْرِفُ
لِما تَفْعَلُهُ سَبَبًا، وَلا تُدْرِكُ لَهُ غايَةً،
أَبْصَرَتِ الشَّجَرَةَ تَميلُ إِلى الأَرْضِ،
وَالعصافيرَ تَرْفَعُها مِنْ أَثْوابِها، وَتَضَعُها في

عُشٍّ كَبيرٍ بَيْنَ أَغْصانِ الشَّجَرَةِ العِمْلاقَةِ.. هُنا أَدْرَكَتْ ياسَمين أَنَّ هَذا هُوَ مَنْزِلُها الجَديدُ، الَّذي بَنَتْهُ لَها العَصافيرُ! عاشَتْ ياسَمين عَلى هَذِهِ الشَّجَرَةِ، بِجوارِ البُحَيْرَةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمارِها، وَتَشْرَبُ وَتَغْتَسِلُ في مِياهِ البُحَيْرَةِ، وَتَتَحَدَّثُ إِلى الحَيَواناتِ وَالطُّيورِ وَالأَزْهارِ، وَتَشْعُرُ بِأَنَّهُمْ يَفْهَمونَها، وَتَطيبُ لَهُمْ صُحْبَتُها.

وَكَبِرَتْ ياسَمين، وَاشْتَدَّ عودُها، وَأَصْبَحَتْ شابَّةً بارِعَةَ الجَمالِ، يَكادُ جَمالُها يَخْطِفُ الأَبْصارَ، وَيُذْهِبُ العُقولَ. كانَ شَعْرُها طَويلًا ذَهَبِيًّا، تَضْفِرُهُ فَوْقَ رَأْسِها كَأَنَّهُ تاجٌ مِنَ الذَّهَبِ الخالِصِ.

وَذاتَ صَباحٍ، اغْتَسَلَتْ ياسَمين في ماءِ البُحَيْرَةِ كَعادَتِها، وَصَعِدَتْ فَوْقَ الشَّجَرَةِ تَمْشُطُ شَعْرَها فَسَقَطَتْ شَعْرَةٌ ذَهَبِيَّةٌ طَويلَةٌ في ماءِ البُحَيْرَةِ. وَبَعْدَ قَليلٍ، جاءَ أَميرٌ راكِبًا جَوادَهُ لِيَسْتَريحَ بِجوارِ البُحَيْرَةِ، وَحينَما أَرادَ الجَوادُ أَنْ يَشْرَبَ ابْتَلَعَ الشَّعْرَةَ الذَّهَبِيَّةَ.

عادَ الأَميرُ إِلى مَنْزِلِهِ وَفُوجِئَ بِأَنَّ حِصانَهُ يَرْفُضُ تَناوُلَ الطَّعامِ وَالشَّرابِ، وَكانَ الأَميرُ يُحِبُّ حِصانَهُ حُبًّا جَمًّا، وَكانَتْ تَرْبِطُ بَيْنَهما صَداقَةٌ حَميمَةٌ، فَانْزَعَجَ عَلى صَديقِهِ الحِصانِ، وَاسْتَدْعى لِعِلاجِهِ كِبارَ الأَطِبّاءِ، وَاكْتَشَفَ أَحَدُهُمُ الشَّعْرَةَ الذَّهَبِيَّةَ الَّتي ابْتَلَعَها الجَوادُ، وَتَمَكَّنَ مِنْ إِخْراجِها مِنْ جَوْفِهِ.

عادَ الحِصانُ إِلى عافِيَتِهِ فَهَدَأَ بالُ الأَميرِ، وَاسْتَراحَ خاطِرُهُ، وَلَكِنَّ أَمْرَ هَذِهِ الشَّعْرَةِ الذَّهَبِيَّةِ كانَ يَشْغَلُهُ وَيُؤَرِّقُهُ؛ فَقَرَّرَ البَحْثَ في كُلِّ مَكانٍ في الغابَةِ عَنْ صاحِبَتِها لِيَتَزَوَّجَ بِها، فَلا شَكَّ في أَنَّها جَميلَةٌ فاتِنَةٌ كَشَعْرَتِها.

اِنْطَلَقَ الحُرّاسُ وَالجَواري يَبْحَثونَ في أَرْجاءِ الغابَةِ دونَ جَدْوى، وَالأَميرُ يَزْدادُ إِصْرارًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْم عَلى العُثورِ عَلى صاحِبَةِ هَذِهِ الشَّعْرَةِ الذَّهَبِيَّةِ؛ فَقَدِ امْتَلأً قَلْبُهُ حُبًّا لَها، وَفاضَتْ نَفْسُهُ إِعْجابًا بِها، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَرَها.

وَذاتَ يَوْمٍ، اكْتَشَفَتْ إِحْدى الجَواري مَكانَ ياسَمين؛ إِذْ لَمَحَتْ صورَتَها تَنْعَكِسُ عَلى صَفْحَةِ ماءِ البُحَيْرَةِ، فَعادَتْ مُسْرِعَةً لِتُخْبِرَ الأميرَ بما رَأَتْهُ.

حَضَرَ الأَميرُ إلى البُحَيْرَةِ، وَنَظَرَ إلى ياسَمين، فَبَهَرَهُ جَمالُها الفاتِنُ، الَّذي لَمْ يَرَ لَهُ مِنْ قَبْلُ مَثيلًا، وَرَغِبَ إِلَيْها في أَنْ تَنْزِلَ لِيَتَحَدَّثَ مَعَها، وَلَكِنَّها رَفَضَتِ النُّزولَ مِنْ أَعْلى الشَّجَرَةِ، كَما رَفَضَتِ الحَديثَ مَعَهُ.

عادَ الأَميرُ إلى القَصْرِ مَريضًا، وَازْدادَتْ حالَتُهُ عَلى مَرِّ الأَيّام سوءًا، وَلَمْ يُجْدِ في عِلاجِهِ عِلْمُ الأَطِبّاءِ وَلا مَهارَةُ السَّحَرَةِ. وَقَلِقَتْ مُرَبِّيَتُهُ العَجوزُ عَلَيْهِ، وَأَحْزَنها حالُهُ، فَاسْتَقَرَّ أَمْرُها عَلى أَنْ تُحْضِرَ لَهُ ياسَمين مَهْما كَلَّفَها ذَلِكَ مِنْ جُهْدٍ، وَطَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَذْهَبَ مَعَها إلى الغابَةِ، حَيْثُ الشَّجَرَةُ الَّتي تَسْكُنُها ياسَمين، وَأَنْ يُحْضِرَ لَها شاةً

وَسِكّينًا كَبيرةً وَيَخْتَبِئَ هُوَ حَتّى تَأْتِيَ اللَّحْظَةُ المُناسِبَةُ.

فَعَلَ الأَميرُ ما طَلَبَتْهُ مُرَبِّيَتُهُ العَجوزُ الَّتي حاوَلَتْ ذَبْحَ الشّاةِ مِنْ رِجْلِها، فَضَحِكَتِ الفَتاةُ مِنْ هَذا المَنْظَرِ ضَحْكَةً عالِيَةً. فَنَظَرت إِلَيْها العَجوزُ نَظْرَةً ضَعيفَةً مُتَهالِكَةً، وَقالَتْ لَها:

«أَتَسْخَرينَ مِنّي، أَيَّتُها الشّابَّةُ؛ لأَنَّ بَصَري قَدْ ضَعُفَ، فَلَمْ أَعُدْ أَرى بِوُضوحٍ - بَدَلًا مِنْ مُساعَدَتي؟ يا لَكِ مِنْ فَتاةٍ قاسِيَةِ القَلْبِ، عَديمَةِ الأَحاسيسِ!»

«آسِفَةٌ، يا سَيِّدَتي، لَمْ أَقْصِدْ أَبَدًا السُّخْرِيَةَ مِنْكِ وَلا الإساءَةَ إِلَيْكِ. سَأَنْزِلُ حالًا لأُساعِدَكِ.»

وَما كادَتِ الفَتاةُ تَنْزِلُ حَيْثُ جَلَسَتِ العَجوزُ، وَتُسْهِمُ في ذَبْحِ الشّاة، حَتّى أَمْسَكَ بِها الأَميرُ.

ذُهِلَتْ ياسَمين مِنَ المُفاجَأَةِ، وَأَجْهَشَتْ بِالبُكاءِ، وَأَخَذَتْ تَسْتَعْطِفُ الأَميرَ أَنْ يَتْرُكَها وَشَأْنَها، وَلَكِنَّهُ قالَ لَها:

«لا أُريدُ بِكِ شَرًّا، وَلَكِنَّني أُريدُ أَنْ أَتَزَوَّجَكِ، وَأَنْقُلَكِ إِلى قَصْري، حَيْثُ تَجِدينَ الرّاحَةَ والسَّعادَةَ.»

أَجابَتْهُ: «إِذًا أَعْطِني مُهْلَةَ يَوْمَيْنِ أُفَكِّرُ فيهِما؛ حَتّى أَسْتَقِرَّ عَلى رَأْيٍ.»

قالَ لَها: «حَسَنًا مَوْعِدُنا هُنا بَعْدَ يَوْمَيْنِ. إِلى اللِّقاءِ، يا أَميرَتي.»

اِنْصَرَفَ الأَميرُ راضِيًا، وَمُرَبِّيَتُهُ فَرِحَةٌ مَسْرورَةٌ، وَراحَتْ ياسَمين تُفَكِّرُ فيما عَرَضَهُ الأَميرُ عَلَيْها، وَتُوازِنُ بَيْنَ شَأْنِها الحاضِرِ، وَما يَنْتَظِرُها في قَصْرِ الأَميرِ الَّذي لا تَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا.

إِنَّها تَشْعُرُ هُنا بِالسَّعادَةِ تَغْمُرُها، وَبِالهَناءَةِ تَمْلأُ قَلْبَها.. إِنَّها تُحِبُّ المَكانَ، وَتَجِدُ أُلْفَةً مَعَ كُلِّ ما فيهِ: مَعَ صَوْتِ الحَشَراتِ، وَزَقْزَقَةِ الطُّيورِ، وَشَدْوِ البَلابِلِ،

وَعَبيرِ الزُّهورِ.. كُلُّ شَيْءٍ هُنا تُحِبُّهُ، وَلَكِنْ هَلْ تَسْتَطيعُ أَنْ تَعيشَ وَحيدَةً مُنْفَرِدَةً بِغَيْرِ أَنيسٍ حَتّى نِهايَةِ عُمْرِها؟ وَهَلْ سَيَأْتي اليَوْمُ الَّذي سَتَنْدَمُ فيهِ لَوْ رَفَضَتْ عَرْضَ الأَميرِ؟ إِنَّهُ يَبْدو شابًّا طَيِّبًا، وَقَدْ تَجِدُ السَّعادَةَ بِجِوارِهِ.

مَلَكَتِ الحَيْرَةُ نَفْسَ ياسَمين، وَكادَتْ تَسْتَبِدُّ بِعَقْلِها، وَلَكِنَّها حَسَمَتْ مَوْقِفَها، وَتَخَلَّصَتْ مِنْ حَيْرَتِها وَتَرَدُّدِها، فَما كادَ اليَوْمانِ يَنْتَهِيانِ حَتّى كانَتْ قَدِ اسْتَقَرَّتْ عَلى رَأْيٍ.

فَلَمّا حَضَرَ الأَميرُ في المَوعِدِ المُحَدَّدِ أَبْلَغَتْهُ بِمُوافَقَتِها عَلى الزَّواجِ، عَلى أَنْ يَتْرُكَ لَها يَوْمًا آخَرَ تُوَدِّعُ فيهِ كُلَّ ما في هَذا المَكانِ، الَّذي أَحَبَّتْهُ وَعاشَتْ وَكَبِرَتْ فيهِ.

وافَقَ الأَميرُ سَعيدًا، وَوَعَدَها بِالحُضورِ مَعَ إِشْراقَةِ شَمْسِ الغَدِ.

كانَ مَوْقِفُ الوَداعِ صَعْبًا قاسِيًا، تَأَلَّمتْ لَهُ الفَتاةُ كَما

تَأَلَّمَ لَهُ كُلُّ ما في الغابَةِ. صَنَعَتْ لَها الزُّهورُ عِقْدًا مِنْ أَوْراقِها، وَقَدَّمَتْ لَها الأَشْجارُ تاجًا مِنْ أَغْصانِها، وَنَسَجَتْ لَها الحَيَواناتُ ثَوْبًا مِنْ جُلودِها، وَقَدَّمَتْ لَها العَصافيرُ خُفًّا مِنْ ريشِها.

شَكَرَتْ لَهُمْ ياسَمين مَشاعِرَهُمُ النَّبيلَةَ وَعَواطِفَهُمُ السّامِيَةَ، وَحُسْنَ عِنايَتِهِمْ بِها، وَوَعَدَتْهُمْ بِأَنْ تَزورَهُمْ بَيْنَ الحينِ وَالحينِ؛ فَهِيَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَنْساهُمْ، ما دامَتْ عَلى قَيْدِ الحَياةِ!

أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ جَميلَةً بَرّاقَةً، وَفَرَشَتْ أَشِعَّتَها عَلى رُؤوسِ الزُّهورِ وَالأَشْجارِ، وَتَخَلَّلَتْ مِنْ بَيْنِ الفُروعِ وَالأَوْراقِ كَالجُنَيْهاتِ الذَّهَبِيَّةِ.. كانَ كُلُّ شَيْءٍ جَميلًا فاتِنًا، وَلَكِنَّ مَشاعِرَ مُخْتَلِطَةً تَضْطَرِبُ في نَفْسِ ياسَمين.. إِنَّها تَشْعُرُ بِخَليطٍ مِنَ الحُزْنِ وَالفَرَحِ، وَالأَمَلِ وَالرَّهْبَةِ؛ فَهِيَ حَزينَةٌ لِفِراقِ المَكانِ الَّذي تُحِبُّهُ، وَلَكِنَّها في الوَقْتِ نَفْسِهِ مُسْتَبْشِرَةٌ مُتَفائِلَةٌ بِالحَياةِ الَّتي تَنْتَظِرُها،

آمِلَةٌ في مُسْتَقْبَلٍ سَعيدٍ مَعَ هَذا الأَميرِ.

كانَ الأَميرُ في الغابَةِ مَعَ أَوَّلِ شُعاعٍ مِنْ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ، نَظَرَ إِلى ياسَمين وَهيَ تُوَدِّعُ أَحِبّاءَها، وَقَدْ كَساها الوَفاءُ ثَوْبًا رائِعًا مِنَ الجَلالِ وَالجَمالِ؛ فَازْدادَ إِعْجابُهُ بِها، وَإِكْبارُهُ لَها.. وَأَيْقَنَ أَنَّها سَتكونُ لَهُ نِعْمَ الزَّوْجَةُ الوَفِيَّةُ، وَعَزَمَ عَلى أَنْ يَكونَ لَها نِعْمَ الزَّوْجُ الوَفيُّ.

ناداها فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ، واصْطَحَبَها إِلى المَدينَةِ، الَّتي كانَتْ قَدْ عَمَّتْها الفَرْحَةُ، فَعُلِّقَتِ الزِّيناتُ في كُلِّ مكانٍ.

اسْتَمَرَّ حَفْلُ العُرْسِ سَبْعَ لَيالٍ، وَكانَتْ ياسَمين سَعيدَةً مَبْهورَةً بِما تَراهُ، تَكْتَشِفُ حَياةً جَديدَةً تَخْتَلِفُ كَثيرًا عَنْ حَياتِها السّابِقَةِ.

وَلَكِنَّ هَذِهِ السَّعادَةَ لَمْ تَدُمْ طَويلًا؛ فَقَدْ كانَ الأَميرُ غَيورًا شَديدَ الغَيْرَةِ، يَخافُ عَلى الأَميرَةِ إِذا نَظَرَتْ إِلَيْها عَيْنٌ، وَتَهْتَزُّ أَطْرافُهُ إِذا سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتَها، وَيَرْتَعِدُ قَلْبُهُ

إِذا كانَ النّاظِرُ إِلَيْها أَوِ الْمُتَحَدِّثُ مَعَها شابًّا وَسيمًا؛ وَمِنْ ثَمَّ كانَ دائِمَ الشِّجارِ مَعَها، كَثيرَ الصِّياحِ. وَلِكَيْ يَهْدَأَ بالُهُ، بَنى لَها قَصْرًا ضَخْمًا، تُحيطُ بِهِ الأَسْوارُ العالِيَةُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ، أَسْكَنَها فيهِ، لا يَدْخُلُ إِلَيْها أَحَدٌ وَلا يُحَدِّثُها أَحَدٌ.

شَعَرتْ ياسَمين بِالأَسى البالِغِ وَالحُزْنِ الشَّديدِ؛ فَقَدِ افْتَقَدَتْ حياةَ الحُرِّيَّةِ الَّتي كانَتْ تَعيشُها في الغابَةِ، وَلَمْ تُفْلِحْ هَدايا الأَميرِ الغالِيَةُ، وَلا الثِّيابُ الفاخِرَةُ، ولا الحُلِيُّ البَديعَةُ، في أَنْ تُخَفِّفَ مِنْ حُزْنِها. وَكانَتْ دائِمَةَ التَّحَسُّرِ عَلى حَياتِها في الغابَةِ، تَتَمَنّى أَنْ تَعودَ إِلَيْها.

لَمْ يَكُنْ يُؤْنِسُ وَحْدَتَها سِوى عُصْفورٍ صَغيرٍ، يَحْضُرُ إِلَيْها كُلَّ صَباحٍ لِيَتَحَدَّثَ إِلَيْها، وَيَرْوي لَها أَخْبارَ الغابَةِ.

وَأَصْبَحَتْ تَنْتَظِرُ زياراتِ العُصْفورِ بِشَوْقٍ وَلَهْفَةٍ. وَفي يَوْمٍ، طَلَبَ مِنْها العُصْفورُ أَنْ تُعْطِيَ لَهُ سَبْعَ شَعَراتٍ ذَهَبِيَّةٍ مِنْ شَعْرِها، وَلا تَسْأَلَهُ لِماذا. وافَقَتْ ياسَمين، وَأَعْطَتْهُ

الشَّعَراتِ السَّبْعَ، وذَهَبَ العُصْفورُ بِهَذِهِ الشَّعَراتِ لِلْغَزّالِ، ثُمَّ للنَّسّاجِ، ثُمَّ لِلْحائِكِ؛ لِيَصْنَعَ لَهُ مِنْها زِيًّا. وَعِنْدَما طَلَبوا مِنْهُ أَجْرًا عَلى أَعْمالِهِمْ، أَجابَهُمْ:

«سَأَدْفَعُ لَكُمْ عِنْدَما تَخْرُجُ ياسَمين مِنْ سجْنِها.» وَلَمْ يَفْهَموا عَنْهُ شَيْئًا.

وَجَدَ العُصْفورُ نَفْسَهُ جَميلًا في هَذا الزِّيِّ، وَقالَ لِنَفْسِهِ: «الآنَ لا يَليقُ بي مَكانٌ إلّا قَصْرُ الأَميرِ.»

ذَهَبَ العُصْفورُ إِلى القَصْرِ، وَوَقَفَ عَلى نَخْلَةٍ عالِيَةٍ، يَأْكُلُ مِنْ بَلَحِها وَيَرْمي النَّوى، حَتّى سَقَطَتْ واحِدَةٌ عَلى رَأْسِ الأَميرِ، الَّذي اغْتاظَ كَثيرًا، وَنَظَرَ إِلى العُصْفورِ الَّذي قالَ لَهُ بِجُرْأَةٍ شَديدَةٍ:

«الثَّمَرَةُ لي وَالنَّوى لَكَ!»

اِشْتَدَّ غَيْظُ الأَميرِ، وَطَلَبَ مِنَ البُسْتانِيِّ وَالحَرَسِ أَنْ يُمْسِكوا بِالعُصْفورِ؛ وَلَكِنَّهُمْ فَشِلوا، فَاسْتَعانَ بِالجَيْشِ

دونَ فائِدَةٍ. وَشَعَرَ العُصْفورُ بِضيقِ الأميرِ وَغَيْظِهِ، فكَانَ يَتَعَمَّدُ الغِناءَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، حَتّى يَصلَ إِلى سَمْعِ الأَميرِ، فَيَشْتَدَّ ضيقُهُ، وَيَزْدادَ غَيْظُهُ.. وَلّما يَئِسَ الأميرُ أَعْلَنَ عَنْ مُكافَأَةٍ لِمَنْ يُمْسِكُ بِالعُصْفورِ. وَاسْتَطاعَ ابْنُ البُسْتانِيِّ أَنْ يُمْسِكَ بِهِ، وَيَحْصُلَ على المُكافَأَةِ.

وَطَلَبَ الأَميرُ أَنْ يُقَدَّمَ لَهُ العُصْفورُ عَلى مائِدَةِ العَشاءِ.

وفي المَطْبَخِ، وَهُمْ يَنْتِفونَ ريشَهُ، أَخَذَ يَصيحُ:

«اِنْتِفوا جَيِّدًا، لَوْ بَقِيَتْ ريشَةٌ واحِدَةٌ لَهَلَكَ الأَميرُ!»

وَعِنْدَ تَنْظيفِهِ، أَخَذَ يَقولُ:

«نَظِّفوا جَيِّدًا، لَوْ بَقِيَتْ قِطْعَةٌ صَغيرَةٌ مِنْ أَحْشائي لَهَلَكَ الأَميرُ!»

وَعِنْدَ تَسْوِيَتِهِ عَلى النّارِ، قالَ:

«سَوّوني جَيِّدًا، لَوْ لَمْ تَسْتَوِ قِطْعَةُ لَحْمٍ واحِدَةٌ لَهَلَكَ الأَميرُ!»



وَأَخيرًا، وَصَل عَلى مائِدَةِ العَشاءِ، وَقال لِلأَميرِ:
«امْضُغْني جَيِّدًا، لَو بَقِيَتْ أَيُّ قِطْعَةٍ دونَ مَضْغٍ لَهَلَكْتَ!»

وَبَعْدَ العَشاءِ، شَعَرَ الأَميرُ بِتَوَعُّكٍ وَأَلَمٍ شَديدٍ في مَعِدَتِهِ، وَحَرَكَةٍ عَنيفَةٍ في أَحْشائِهِ، وَسَمِعَ صَوْتًا يَقولُ:

«لَوْ بَقيتُ لَهَلَكَ الأَميرُ، فَهُنا في بَطْنِهِ ريشَةٌ دونَ نَتْفٍ، وَقِطْعَةٌ مِنْ أَحْشائي لَمْ يُلْقَ بِها، وَقِطْعَةٌ مِنْ لَحْمي لَمْ تَنْضَجْ، وَقِطْعَةٌ أُخْرى لَمْ يَمْضُغْها الأَميرُ، لَوْ بَقيتُ لَهَلَكَ!»

«كَيْفَ نُخْرِجُكَ؟!»

«لَنْ أَقولَ لَكُمْ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَعِدَني الأَميرُ بِأَنْ يُطْلِقَ سَراحَ ياسَمين مِنْ هَذا السِّجْنِ الَّذي تَعيشُ فيهِ.»

وَكانَ التَّعَبُ يَشْتَدُّ بِالأَميرِ، وَالأَلَمُ يَكادُ يُمَزِّقُ أَحْشاءَهُ، فَقالَ بِسُرْعَةٍ:

«أَعِدُكَ أَيُّها العُصْفورُ بِذَلِكَ، فَبِاللهِ عَلَيْكَ ساعِدْني وَاخْرُجْ.»

«حَسَنًا عَلَيْكَ بِفَتْحِ فَمِكَ جَيِّدًا، ثُمَّ تَثاءَبْ.»

وَعِنْدَما فَعَلَ الأَميرُ ذَلِكَ، خَرَجَ العُصْفورُ وَطارَ مِنَ النّافِذَةِ.

وَكانَتْ ياسَمين في ذَلِكَ الوَقْتِ قَلِقَةً حَزينَةً، واجِمَةً ساهِمَةً؛ فَقَدْ تَغَيَّبَ عَنْها العُصْفورُ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيّامٍ، لَمْ تَعُدْ تَراهُ كَعادَتِها كُلَّ صَباحٍ، كانَ الوَحيدَ الَّذي يَزورُها وَيُؤْنِسُ وَحْشَتَها، وَيَرْبِطُها بِالعالَمِ الخارِجِيِّ.

لَقَدِ اخْتَفى مُنْذُ أَنْ أَخَذَ الشَّعَراتِ الذَّهَبِيَّةَ.. تُرى ماذا جَرى لَهُ؟

إِنَّها حَزينَةٌ.. حَزينَةٌ لِفَقْدِهِ، وَحَزينَةٌ لِوَحْشَتِها! وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَيْأَسْ، وَلَمْ تَفْقِدِ الأَمَلَ في حُضورِهِ، فَكانَتْ تَخْرُجُ كُلَّ صَباحٍ تَنْتَظِرُهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعُدْ.

وَفي صَباحٍ وَجَدَتْ زِيَّهُ المَصْنوعَ مِنَ الشَّعَراتِ الذَّهَبِيَّةِ عَلى حافَّةِ النّافِذَةِ، فَأَيْقَنَتْ أَنَّهُ لَنْ يَعودَ!

لَمْ يَعُدِ العُصفورُ مُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ... وَلَكِنَّ تَغَيُّرًا مُذْهِلًا قَدْ حَدَثَ في سُلوكِ الأَميرِ: لَقَدْ أَخْرَجَ ياسَمين مِنْ سِجْنِها الفاخِرِ، وَأَخَذَ يَذْهَبُ مَعَها كُلَّ أُسْبوعٍ إِلى

الغابَةِ، يَسْتَمْتِعانِ بِجَمالِ الطَّبيعَةِ، وَيَغْتَسِلانِ بِماءِ البُحَيْرَةِ، وَيَعيشانِ يَوْمًا في المَكانِ الَّذي أَحَبَّتْهُ وأَحَبَّها، يَرْتَوِيانِ مِنْ نَبْعِ الحَنانِ وَالوَفاءِ، وَيَشْعُرانِ بِطَعْمِ الحَياةِ، وَيَنْعَمانِ بِالسَّعادَةِ وَالهَناءِ.

مَمْلَكَةُ الصَّفاءِ وَمَمْلَكَةُ الهَناءِ

يُحْكى أَنَّهُ في قَديمِ الزَّمانِ، كانَتْ توجَدُ غابَةٌ كَبيرَةٌ تَعيشُ فيها الحَيَواناتُ في حبٍّ وَسَعادَةٍ، وَفي إخاءٍ وَتَفاهُمٍ. وَكانَ يَحْكُمُ هَذِهِ الغابَةَ أَسَدٌ حَكيمٌ، يُحِبُّ الخَيْرَ وَيُساعِدُ الضَّعيفَ، وَيَعْطِفُ عَلى الصَّغيرِ، لِذَلِكَ كانَ مِنَ النّادِرِ أَنْ تَرى حَيَوانًا حَزينًا أَوْ غاضِبًا أو مُكْتَئِبًا.

وَفي يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ، كانَ الأَسَدُ مُجْتَمِعًا بِالحَيَواناتِ كَعادَتِهِ، لِبَحْثِ مَشاكِلِها وَالوُصولِ إلى إيجادِ حَلٍّ لَها، فَتَخَلَّفَ القِرْدُ والطّاوُوسُ عَنِ الحُضورِ، فاسْتَدْعاهُما الأَسَدُ في الحالِ.

ودَخَلَ كُلٌّ مِنْهُما عَلى الأَسَدِ وَهُوَ حَزينٌ، وَالدُّموعُ تَمْلأُ عَيْنَيْهِ، فَسَأَلَهُما الأَسَدُ دَهِشًا:

«ما سِرُّ حُزْنِكُما؟ أَنا لا أُطيقُ أَنْ أَرى أَحَدًا مِنَ الرَّعِيَّةِ غَيْرَ سَعيدٍ. قُصّا عَلَيَّ سَبَبَ حُزْنِكُما؟»

قالَ القِرْدُ: «أَنا، يا مَوْلايَ، ضِقْتُ ذَرْعًا بِشَكْلِيَ القَبيحِ. إذا أَرادَ أَحَدٌ أَنْ يَصِفَ شَخْصًا قَبيحًا قالَ إِنَّهُ يُشْبِهُ القِرْدَ. آهِ كَمْ وَدِدْتُ لَوْ أَعْطانِيَ اللهُ شَكْلًا جَميلًا أَتَباهى بِهِ! آهِ لَوْ كُنْتُ بُلْبُلًا أَوْ غَزالَةً! آهِ لَوْ كُنْتُ طاوُوسًا!»

قالَ الطّاوُوسُ: «أَمّا أَنا، يا مَوْلايَ، فَلَقَدْ ضِقْتُ ذَرْعًا بِجَمالي؛ فَأَنا أَخْشى الحَرَكَةَ، وأَمْشي دونَ أَنْ أُديرَ رَأْسي يَمينًا أَوْ شِمالًا خَوْفًا عَلى ريشِيَ الجَميلِ الزّاهي الأَلْوانِ..

«آهِ لَوْ كُنْتُ أَسْتَطيعُ الطَّيَرانَ مِثْلَ العَصافيرِ! آهِ لَوْ كُنْتُ غَزالَةً تَجْري مِنْ مَكانٍ إِلى آخَرَ، أَوْ قِرْدًا يَقْفِزُ مِنْ هُنا إِلى هُناكَ!»

اِبْتَسَمَ الأَسَدُ قائِلًا: «ما رَأْيُكُما لَوْ تَحَقَّقَ لَكُما

طَلَبُكُما؟ ما رَأْيُكُما لَوْ أَصْبَحَ القِرْدُ طاوُوسًا، وَالطّاوُوسُ قِرْدًا؟ إنَّني أَمْلِكُ القُدْرَةَ عَلى ذَلِكَ.»

رَدَّ القِرْدُ والطّاوُوسُ في نَفَسٍ واحِدٍ: «لَيْتَ هَذا يَحْدُثُ! آهِ لَوْ حَدَثَ ذَلِكَ - إنَّنا سَنكونُ حينئذٍ أسْعدَ الحَيَواناتِ!»

قالَ الأَسَدُ: «وَلَكِنْ لا سَبيلَ لِلتَّراجُع قَبْلَ مُضِيِّ يَوْمَيْنِ، أَتُوافِقانِ عَلى ذَلِكَ؟»

«نَعَمْ. نُوافِقُ.»

ما كادَ القِرْدُ وَالطّاوُوسُ يَنْطِقانِ هَذِهِ العِبارَةَ حَتّى أَصْبَحَ القِرْدُ طاوُوسًا وَالطّاوُوسُ قِرْدًا. وَانْفَضَّ المَجْلِسُ وَذَهَبَ كُلُّ واحِدٍ إلى مَنْزِلِهِ.

حاوَلَ القِرْدُ في شَكْلِهِ الجَديدِ أَنْ يَقْفِزَ مِنْ شَجَرَةٍ إلى شَجَرَةٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ، وَكانَ عَلَيْهِ أَنْ يَمْشِيَ مُخْتالًا بِهُدوءٍ، وَيَلْتَقِطَ الحَبَّ في تَأَنٍّ، وَلَكِنَّهُ كانَ فَرِحًا بِخَيالِهِ وزينَتِهِ.

أَمّا الطّاووسُ فَأَخَذَ يَقْفِزُ مِنْ مَكانٍ إلى آخَرَ سَعيدًا، إلى أَنْ وَصَلَ إلى البُحَيْرَةِ فَمالَ عَلى صَفْحَةِ الماءِ لِيَشْرَبَ، وَلمّا رَأى صُورَتَهُ تَراجَعَ صائِحًا: «كَمْ أَنا قَبيحُ المَنْظَرِ! كَيْفَ يَراني باقي الحَيَواناتِ؟»

وَلَمْ تَمْضِ بِضْعُ ساعاتٍ حَتّى تَقابَلَ القِرْدُ وَالطّاووس في مَنْزِلِ الأَسَدِ، وَكُلُّ واحِدٍ يُريدُ أَنْ يَعودَ إلى شَكْلِهِ الأَصْلِيِّ.

قالَ القِرْدُ: «ضِقْتُ بِعَدَمِ القُدْرَةِ عَلى الحَرَكَةِ. أُريدُ أَنْ أَكونَ حُرًّا وَلَيْسَ عَبْدًا لِجَمالي.

«أُريدُ أَنْ أَجْرِيَ وَأَقْفِزَ عالِيًا هُنا وَهُناكَ. أُريدُ أَنْ أَكونَ قِرْدًا.»

قالَ الطّاوُوسُ: «لا أَحْتَمِلُ رُؤْيَةَ صُورَتي. أُريدُ أَنْ أَعودَ إلى جَمالي وَزينَتي. أُريدُ أَنْ أَكونَ طاوُوسًا.»

قالَ الأَسَدُ ضاحِكًا: «لَنْ يكونَ ذَلِكَ قَبْلَ انْقِضاءِ يَوْمَيْنِ. عَلَيْكُما الانْتِظارَ.»

عادَ كُلٌّ مِنْهُما إلى مَنْزِلِهِ وَهُوَ يَعُدُّ السّاعاتِ وَالدَّقائِقَ، وَيَتَمَنّى مِنْ كُلِّ قَلبِهِ انْقِضاءَ اليَوْمَيْن حَتّى يَعودَ إلى شَكْلِهِ الأَصْلِيِّ وطَبيعَتِهِ الأولى.

وَمَرَّتِ الأَيّامُ في المَمْلَكَةِ سَعيدةً هَنيئَةً بِدونِ مُشْكِلاتٍ أَوْ مُنازَعاتٍ إلى أَنْ جاءَ يَوْمُ اجْتِماعِ الحَيَواناتِ في بَيْتِ الأَسَدِ.

وَكانَ مِنْ عادَتِهِ أَنْ يُقيمَ مَأْدُبَةً كَبيرَةً يَحْرِصُ كُلُّ حَيَواناتِ الغابَةِ عَلى حُضورِها لِرُؤْيَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَمَعْرِفَةِ آخِرِ الأَنْباءِ والأَخْبارِ في المَمْلَكَةِ، وأَيْضًا لِوُجودِ ما تَشْتَهي النَّفْسُ مِنْ أَطْيَبِ الطَّعامِ وَأَلَذِّ المَأْكولاتِ.

وَلاحَظَ الأَسَدُ تَغَيُّبَ الذِّئْبِ وَعَدَمَ وُجودِهِ في مَكانِهِ عَلى المائِدَةِ، فَأَرادَ انْتِظارَهَ، وَلَكِنَّ الثَّعْلَبَ صاحَ قائِلًا:

«إِنَّ صَديقيَ الذِّئْبَ يَشْكو مِنْ أَلَمٍ في مَعِدَتِهِ؛ وَقَدْ نَصَحَهُ الأَطِبّاءُ بِعَدَمِ الإِكْثارِ مِنَ الأَكْلِ، وَاتِّباعِ نِظامٍ مُعَيَّنٍ، لِذَلِكَ لَنْ يَضُرَّهُ شَيْئًا أَنْ نَبْدَأَ الوَليمَةَ.»

فَأَشارَ الأَسَدُ إِلى الجَميعِ بِالأَكْلِ.

لَجَأَ الثَّعْلَبُ إِلى هَذِهِ الحيلَةِ لِيَنْفَرِدَ بِنَصيبِ جارِهِ عَلى المائِدَةِ، وَلَكِنْ لَمْ تَمْضِ غَيْرُ دَقائِقَ مَعْدوداتٍ حَتّى دَخَلَ الذِّئْبُ لاهِثًا، يَعْتَذِرُ عَنْ تَأَخُّرِهِ، وَلَكِنَّ المائِدَةَ كانَتْ شِبْهَ خالِيَةٍ، فابْتَدَرَهُ الأَسَدُ قائِلًا:

«أَرْجو أَنْ تَكونَ صِحَّتُكَ الآنَ عَلى ما يُرامُ، فَلَقَدْ شَغَلَنا صَديقُكَ الثَّعْلَبُ بِقَوْلِهِ إِنَّكَ تَشْكو أَلَمًا في مَعِدَتِكَ. كَتَبَ اللهُ لَكَ الشِّفاءَ.»

نَظَرَ الذِّئْبُ إِلى الثَّعْلَبِ وإِلى بَقايا الطَّعامِ أَمامَهُ، فَكَتَمَ غَيْظَهُ وَصَمَّمَ عَلى الانْتِقامِ.

وَمَرَّتِ الأَيّامُ إِلى أَنْ سَمَحَتْ لـهُ الظُّروفُ بِالإِنْتِقامِ،

فَقَدْ كانَ مِنْ عادَةِ الحَيَواناتِ إذا صادَ أَحَدُها صَيْدًا زادَ عَنْ حاجَتِهِ أَنْ يُعْطِيَهُ لِلآخَرينَ بَعْدَ أَنْ يَأْكُلَ كِفايَتَهُ، وَفي ذَلِكَ اليَوْمِ قابَلَ الذِّئْبُ صَديقَهُ النَّمْرَ فَأَعْطاهُ بِضْعَ دَجاجاتٍ كانَ قَدِ اصْطادَها لِيَقْتَسِمَها مَعَ الثَّعْلَبِ، لَكِنَّ الذِّئْبَ انْفَرَدَ بِالوَليمَةِ وَحْدَهُ، وَلَمّا جاءَهُ الثَّعْلَبُ لِلسُّؤالِ عَنْ نَصيبِهِ قالَ لَهُ:

«ظَنَنْتُكَ، يا صَديقي، لا تُحِبُّ الدَّجاجَ.»

اِنْصَرَفَ الثَّعْلَبُ غاضِبًا وَذَهَبَ لِيَشْكُوَهُ لِلأَسَدِ، فَبَعَثَ الأَسَدُ في طَلَبِهِ، وَلَمّا مَثُلَ الذِّئْبُ بَيْنَ يَدَيْهِ سَأَلَهُ الأَسَدُ غاضِبًا: «مُنْذُ مَتى لا يُحِبُّ الثَّعْلَبُ الدَّجاجَ؟»

أَجابَ الذِّئْبُ مُبْتَسِمًا: «مُنْذُ اليَوْمِ الَّذي أَصابَني فيهِ أَلَمٌ في مَعِدَتي، يا سَيِّدي.»

فَهِمَ الأَسَدُ ما يَعْنيهِ الذِّئْبُ، وَزَجَرَهُما وَطَلَبَ مِنْهُما عَدَمَ العَوْدَةِ إِلى هَذِهِ الأَساليبِ الَّتي تُكَدِّرُ صَفْوَ الحَياةِ في

المَمْلَكَةِ، وتُفْسِدُ الوُدَّ بَيْنَهُما، فَوعَداهُ بِذلِكَ، وانْصَرَفَ كُلٌّ مِنْهُما إلى شَأْنِهِ.

مَضَت الأَيَّامُ هادِئَةً لا يُعَكِّرُ صَفْوَها شَيءٌ إلى أَنْ جاءَ عامُ قَحْطٍ وَمَجاعَةٍ: نَضَبَ الماءُ، وَجَفَّتِ الأَرْضُ، وَيَبِسَ النَّباتُ، وَماتَتِ الثِّمارُ. وَلَكِنْ بِالحُبِّ والتَّفاهُمِ والعَطاءِ اسْتطاعتِ الحَيَواناتُ التَّغَلُّبَ عَلى ذَلِكَ، فَكُلُّ مَنِ اصْطادَ شَيْئًا أَحْضَرَهُ لِلأَسَدِ لِيُوَزِّعَهُ بِالتَّساوي عَلى الحَيَواناتِ، فَيأْكُلُ القَوِيُّ وَالضَّعيفُ، وَالقادِرُ عَلى الصَّيْدِ والمَريضُ، والغَنِيُّ والفَقيرُ، ثُمَّ يَأْكُلُ الأَسَدُ بَعْدَ أَنْ يَطْمَئِنَّ إلى أَنَّ الجَميعَ قَدْ نال قَدْرًا مِنَ الطَّعامِ وَلَوْ ضَئيلًا.

هَكَذا كانَتِ الحَياةُ في مَمْلَكَةِ



الصَّفاءِ في أَيَّامِ القَحْطِ وَالمَجاعَةِ، وفي أَيَّامِ الرَّخاءِ وَالرَّفاهِيَةِ؛ عاشَ الجَميعُ في تَعاوُنٍ وَحُبٍّ وانْسِجامٍ.

وَذاتَ يَوْمٍ، مَرِضَ الأَسَدُ مَرَضًا شَديدًا، وَأَحَسَّ بِقُرْبِ



نِهايَتِهِ؛ وَكانَ أَكْثَرَ ما يُخيفُهُ أَنْ يَفْسُدَ حالُ المَمْلَكَةِ مِنْ بَعْدِهِ.

لَقَدْ كانَتِ الحَياةُ في المَمْلَكَةِ مِثالِيَّةً، تَكادُ تَخلو مِنَ المُشْكِلاتِ، بَلْ هِيَ خالِيَةٌ فِعْلًا مِنْها.. فالمُشْكِلاتُ كُلُّها بَسيطَةٌ لا تَتَعَدّى خِلافاتٍ هَيِّنَةً بَيْنَ الحَيَواناتِ أَوْ دُعاباتٍ بَيْنَها؛ فَلَمْ يُصادِفْهُ طَوالَ مُدَّةِ حُكْمِهِ صِراعٌ أَوْ نِزاعٌ مِثْلُ ما يَحْدُثُ في باقي المَمالِكِ.

وَكانَ هَذا الأَمْرُ يُقْلِقُ الأَسَدَ قَلَقًا شَديدًا، فَهُوَ يُفَكِّرُ فيهِ لَيْلَ نَهارَ: مَنْ يَخْلُفُهُ في حُكْمِ هَذِهِ الغابَةِ؟ إذا اختارَ أَحدًا فَقَدْ يَكونُ ذَلِكَ مَثارَ حِقْدٍ وَضغينَةٍ بَيْنَ الحَيَواناتِ وَإذا لَمْ يَخْتَرْ أَحَدًا فَقَدْ يُؤَدّي ذَلِكَ إلى التَّنافُسِ وَالتَّنازُعِ، وَهُوَ ما يَخْشاهُ وَيُحاوِلُ جاهِدًا أَنْ يَتَحاشاهُ.

وَكانَ المَرَضُ يَشْتَدُّ عَلى الأَسَدِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَيُشْعِرُهُ بِقُرْبِ نِهايَتِهِ وَلَكِنْ كانَ أَمْرُ المَمْلَكَةِ يُنْسيهِ أَلَمَهُ الشَّخْصِيَّ

وَوَهَنَهُ وَضَعْفَهُ، فَهُوَ يُحِبُّ أَنْ تَظَلَّ كَما كانَتْ دائِمًا مَمْلَكَةَ الصَّفاءِ.

وَأخيرًا قَرَّرَ الأَسَد أَن يَكونَ اخْتِيارُ مَن يَخْلُفُهُ في حَياتِهِ وَقَبْلَ مَماتِهِ.. وَلكِنْ عَلى أَيِّ أَساسٍ يَكونُ الِاخْتيارُ؟

أَيَكونُ الاخْتِيارُ لِلأَقْوى، أَمْ لِلْقادِرِ عَلى الدِّفاعِ عَنِ المَمْلَكَةِ؟

وَلَكِنْ أَلَيْسَ مِن المُمْكِنِ أَنْ يَسْتَغِلَّ القَوِيُّ قُوَّتَهُ في فَرْضِ سَيْطَرَتِهِ عَلى المَمْلَكَةِ، وَتَنْفيذِ أوامِرِهِ؟ أَيَكونُ الاخْتِيارُ لأَكْثَر الحَيَواناتِ طيبَةً وَجمالًا أَمْ صِدْقًا أَمْ نَزاهَةً أَمْ شَرَفًا أَمْ أَمانَةً؟ وَلَكِنَّها كُلَّها صِفاتٌ جَميلَةٌ لا تَصْلُحُ وَحْدَها مِعْيارًا للاخْتِيارِ.

وَقَرَّرَ الأَسَدُ أَنْ يَشْتَرِكَ الجَميعُ في اخْتيارِ مَنْ يَحْكُمُ الغابَةَ مِنْ بَعْدِهِ، وَوَضَع قَواعِدَ لِهَذا الاخْتِيارِ. وَدَعا جَميعَ الحَيَواناتِ لاجْتِماعٍ عاجِلٍ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي.

وَلَكِنْ، عِنْدَ حُضورِ الحَيَواناتِ في الصَّباحِ كانَ الأَسَدُ قَدْ فاضَتْ رُوحُهُ، فَحَزِنَتِ الحَيَواناتُ حُزْنًا شَديدًا، وَلَكِنَّها تَماسَكَتْ وَقَرَّرَتْ أَنْ يُعْقَدَ الاجْتِماعُ لِتَنْظُرَ في أَمْرِها وَأَمْرِ مَمْلَكَتِها.

مَنْ يَخْلُفُ الأَسَدَ حَتّى يَسْتَمِرَّ الحالُ عَلى ما هُوَ عَلَيْهِ؟

مَنْ يَمْلأُ هَذا الفَراغَ؟ مَنْ يُرَشِّحُ نَفْسَهُ لِهَذا المَنْصِبِ؟ مَنْ تَخْتارُ الحَيَواناتُ؟

قالَ النِّمْرُ: «عَلَيْنا بِالاقْتِراعِ؛ فَلْيَكْتُبْ كُلُّ واحِدٍ مِنّا اسْمَ مَنْ يُرَشِّحُهُ. وَمَنْ يَفُزْ بِأَكْبَرِ عَدَدٍ مِنَ الأَصْواتِ يَكُنْ لَهُ حَقُّ الحُكْمِ» وَوافَقَ الجَميعُ.

وَعِنْدَ فَرْزِ الأَصْواتِ أَخَذَ الجَمَلُ يَقْرَأُ الأَسْماءَ:

الذِّئْب، الثَّعْلَب، النِّمْر، الجَمَل، الفِيل، الخِرْتِيت، الزَّرافَة...

وَإِذا بِهِ يَذْكُرُ أَسْماءَ جَميعِ الحَيَواناتِ، كُلُّ واحِدٍ كَتَبَ

اسْمَ صَديقِهِ، فَكانَ لِكُلِّ حَيَوانٍ في المَمْلَكَةِ صَوْتٌ واحِدٌ.

«لَمْ تُحَلَّ المُشْكِلَةُ. لَمْ تُحَلَّ المُشْكِلَةُ.» قالَها الحَيَواناتُ في صَوْتٍ واحِدٍ.

وَلَكِنَّ الفيلَ صاحَ قائِلًا: «بَلْ لَقَدْ وَجَدْنا الحَلَّ. لَنْ يَكونَ هُناكَ مَنْ يَحْكُمُ بَعْدَ الأَسَدِ كُلُّنا خُلَفاءُ لِلأَسَدِ. لَقَدْ ماتَ الأَسَدُ وَلَكِنْ تَركَ لَنا الحُبَّ والإخاءَ، والعَطْفَ والتَّعاوُنَ، تَرَكَ لَنا مَمْلَكَةَ الصَّفاءِ.»

وَقالَ النِّمْرُ مُؤَيِّدًا: «سَيَكونُ الحُكْمُ لَنا جَميعًا، كُلُّ واحِدٍ رَقيبٌ عَلى نَفْسِهِ وَعَلى تَصَرُّفاتِهِ. لَنْ نَحْتاجَ لأَحَدٍ يَفُضُّ خِلافاتِنا، وَيَحُلُّ مُشْكِلاتِنا؛ فَلَنْ تَكونَ هُناكَ خِلافاتٌ وَلا مُشْكِلاتٌ، سَيَظَلُّ الحالُ كَما هُوَ. فَلْنُقْسِمْ جَميعًا عَلى أَنْ تَظَلَّ مَمْلَكَتُنا مَمْلَكَةَ الصَّفاءِ.»

وَرَدَّد جَميعُ الحَيَواناتِ القَسَمَ، وَاسْتَمَرَّتِ السَّعادَةُ

تَغْمُرُ هَذِهِ المَمْلَكَةَ سِنينَ طَويلةً وَأَعْوامًا كَثيرةً.

***

وَبِالقُرْبِ مِنْ هَذِهِ المَمْلَكَةِ «مَمْلَكَةِ الصَّفاءِ» - كانَتْ توجَدُ مَمْلَكَةٌ أُخْرى يَسودُها الحُزْنُ وَالكَآبَةُ، يَحْكُمُها مَلِكٌ يَلْبَسُ أَفْخَرَ الثِّيابِ، وَيَأْكُلُ أَطْيَبَ الطَّعامِ، وَيَعيشُ في سَعَةٍ وَرفاهِيَةٍ، وَلَكِنَّهُ رَغْمَ ذَلِكَ كانَ حَزينًا بائِسًا؛ وَذلِكَ لِبُخْلِهِ الشَّديدِ وَابْتِعادِ النّاسِ عَنْهُ رَغْمَ حُبِّهِمْ لَهُ، ومِنْ ثَمَّ شاعَ عَنهُ اسْمُ المَلِكَ «شَحيح.»

وَكانَ هَذا المَلِكُ يَغْضَبُ غَضَبًا شَديدًا إذا رَأى أَحَدًا مِنَ الرَّعِيَّةِ سَعيدًا؛ فالجَميعُ يَجِبُ أَنْ يَحْتَرِموا حُزْنَهُ؛ مِمّا جَعَلَ الحَياةَ كَئيبةً بائسةً في هَذه المَمْلَكَةِ.

وَكانَ لِهَذا المَلِكِ صَديقٌ فَقيرٌ، لا يَكادُ يَجِدُ قوتَ يَوْمِهِ، وَلَكِنَّهُ كانَ سَعيدًا، ضاحِكَ الوَجْهِ، دائِمَ الابْتِسامِ، حَتّى أَطْلَقَ النّاسُ عَلَيْهِ اسْمَ «بَشوش.» وَكانَ «بَشوش» لا

يُخْفي عَلى المَلِكِ سَعادَتَهُ، وَكانَ المَلِكُ يَغْفِرُ لَهُ هَذِهِ السَّعادَةَ لِحُبِّهِ الشَّديدِ لَهُ، وَثِقَتِهِ فيهِ، وَارْتِياحِهِ لِصَداقَتِهِ.

كانَ المَلِكُ «شحيح» يَرْتاحُ كَثيرًا لِصَديقِهِ «بشوش» وَيَدْعوهُ دائِمًا لِمُجالَسَتِهِ في قَصْرِهِ، وَيَحْكي كُلٌّ مِنْهُما لِلآخَرِ ما صادفَهُ في يَوْمِهِ وما يَنْوي القِيامَ بِهِ مِنْ أَعْمال.

وَفي يَوْمٍ، دَخَلَ «بَشوش» عَلى صَديقِهِ فَوَجَدَهُ كَعادَتِهِ، مُقَطِّبَ الجَبينِ، فَبادَرَهُ بِالسَّلامِ، ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنْهُ قائِلًا:

«يا صَديقِيَ العَزيزَ، إِنِّي أَراكَ مُكْفَهِرَّ الوَجْهِ، وَأَرى حُزْنَكَ يَزْدادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَالنّاسُ يَبْتَعدونَ عَنْكَ، وأَخْشى عَلَيْكَ مِنَ الوَحْدَةِ وَالاكْتِئابِ، لِذَلِكَ أَرْجو أَنْ تَسمَعَني جَيِّدًا.

«حاوِلْ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنَ النّاسِ، ساعِدِ الضُّعفاءَ، أَكْرِمِ الفُقَراءَ، مُدَّ يَدَكَ إِلى النّاسِ، وَابْتَعِدْ عَنْ بُخْلِكَ، وَزِّعْ

عَلَيْهِمُ الأَمْوالَ الطّائِلَةَ المَحْبوسَةَ في خِزانتِك، وَسَوْفَ تَرى النَّتيجَةَ؛ سَيَقْتَرِبُ مِنْكَ النّاسُ وَيُحِبّونَكَ، وَسَتَجِدُ في ذَلِكَ سَعادَةً لا حَدَّ لَها.»

أَجابَهُ «شَحيح»: «مَعَكَ حَقٌّ، يا صَديقي. فَأَنا أَصْبَحْتُ لا أَذوقُ طَعْمَ الرّاحَةِ أَوِ النَّوْمِ؛ فَأَنا أَخافُ عَلى ثَرْوَتي مِنَ الضَّياعِ، وَتؤَرِّقُني الفِكْرَةُ حَتّى إِنِّي كَثيرًا ما أَقومُ في وَسْطِ اللَّيْلِ لأَفْتَحَ خِزانَتي، وأَطْمَئِنَّ عَلى كُنوزي: مِنْ مالٍ وَمُجَوْهَراتٍ، وَعِنْدَ عَوْدَتي لِسَريري تُهاجِمُني الهَواجِسُ مِنْ جَديدٍ، فَأَتَخَيَّلُ أَنَّ لِصًّا يَتَرَبَّصُ بي، وَأَنَّ أَموالي عَلى وَشْكِ الضَّياعِ، فَأَعودُ إِلى الخزانَةِ مِنْ جَديدٍ، وَهَكَذا لا أَعْرِفُ لِلنَّوْمِ وَلا لِلرّاحَةِ طَعْمًا. ساعِدْني، يا صَديقي، فَأَنا تَعِبْتُ مِنْ كَثْرَةِ التَّفْكيرِ، وَوَهَنَتْ صِحَّتي، وَاشْتَدَّ حُزْني.»

«حَسَنًا، إذا أَرَدْتَ مِنّي المُساعَدَةَ عَلَيْكَ بِإطاعَةِ أَوامِري دونَ جِدال، سَأَمُرُّ عَلَيْكَ غَدًا صَباحًا لِنَقومَ

بِرِحْلَةٍ قَصيرَةٍ مَعًا. أَرْجو انْتِظاري وَمَعَكَ مَبْلَغٌ كَبيرٌ مِنَ المالِ وَحِصانانِ.»

«حَسَنًا إلى الغَدِ.»

وَانْصَرَفَ «بَشوش» لِيُعِدَّ نَفْسَهُ لِرِحْلَةِ الغَدِ.

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي ذَهَبَ «بَشوش» إلى صَديقِهِ، فَوَجَدَهُ مُسْتَعِدًّا لِلرِّحْلَةِ وَمَعَهُ المالُ وَالحِصانانِ وَبَعْضُ الطَّعامِ، فَرَكِبَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما جَوادَهُ، وانْطَلَقا مَعًا.

وَفي الطَّريقِ، عِنْدَ بُحَيْرَةٍ صَغيرَةٍ، قابَلا شَيْخًا رَثَّ الثِّيابِ، حافِيَ القَدَمَيْنِ يُحاوِلُ أَنْ يَصْطادَ بَعْضَ السَّمَكِ، وَلَكِنَّ شِباكَهُ كانَتْ بالِيَةً، وَالسَّمَكُ يَهْرُبُ مِنْها بَعْدَ دُخولِها لِما فيها مِنْ فُتْحاتٍ، فَأَمَرَ «بَشوش» صَديقَهُ بِأَنْ يُساعِدَ الشَّيْخَ في خِياطَةِ الشِّباكِ وَصَيْدِ السَّمَكِ.

دَهِشَ المَلِكُ «شَحيح» وَلَكِنَّهُ تَذَكَّرَ الاتِّفاقَ، فَنَزَلَ مِنْ فَوْقِ جَوادِهِ، وَاقْتَرَبَ مِنَ الشَّيْخِ، وَأَلْقى عَلَيْهِ السَّلامَ ثُمَّ

أَفْهَمَهُ أَنَّهُ لَنْ يَنْجَحَ في صَيْدِ السَّمَكِ؛ لأَنَّ شِباكَهُ مَقْطوعَةٌ، وَعَلَيْهِما أَنْ يَتعاوَنا في إِصْلاحِها.

وَفِعْلًا بَدَأَ في الإِصْلاحِ، وَمَرَّ الوَقْتُ سَريعًا دونَ أَنْ يُفَكِّرَ المَلِكُ «شحيح» في ثَرْوَتِهِ وَاللُّصوصِ المتربِّصينَ بِها. وَعِنْدَما تَمَّ العَمَلُ أَحَسَّ بِشَيءٍ مِنَ الرِّضا، وَهَمَّ بِرُكوبِ جَوادِهِ، وَلَكِنَّ «بشوش» أَمَرَهُ بِأَنْ يُعْطِيَ الشَّيْخَ مَبْلَغًا مِنَ المالِ لِيَشْتَرِيَ ثِيابًا جَديدَةً، تَسْتُرُ جَسَدَهُ العارِيَ.

وَهُنا ثارَ المَلِكُ قائِلًا:

«لَقَدْ ساعَدْتُهُ في إِصْلاحِ شِباكِهِ، وَهَذا يَكْفي...»

قاطَعَه «بَشوش» قائِلًا: «تَذَكَّرْ أَنَّكَ وافَقْتَ عَلى إِطاعَةِ أَوامِري.»

اُضْطُرَّ المَلِكُ «شَحيح» أَنْ يُعْطِيَ الشَّيْخَ المالَ اللازِمَ لِشراءِ ثِيابٍ جَديدَةٍ، فَعَلَ ذَلِكَ وَهُوَ حَزينٌ، وَلَكِنَّ فَرْحَةَ الشَّيْخِ بِالنُّقودِ، وَدَعْوَتَهُ لَهُ بِالسَّعادَةِ وَطولِ العُمْرِ -

جَعَلَتْهُ يَبْدو راضِيًا بَعْضَ الشَّيْءِ.

مَضى الصَّديقانِ في طَريقِهِما وَلاحَظَ «بشوش» لأَوَّلِ مَرَّةٍ أَنَّ صَديقَهُ قَدِ انْفَرَجَتْ أَساريرُهُ بَعْضَ الشَّيْءِ وَيَلوحُ عَلى شَفَتَيْهِ شَبَحُ ابْتِسامَةٍ صَغيرَةٍ، وَبَعْدَ فَتْرَةٍ قَرَّرا أَنْ يَسْتَريحا قَليلًا، وَيَتَناوَلا بَعْضَ الطَّعامِ في ظِلِّ شَجَرَةٍ كَبيرَةٍ.

وَكانَ الصَّديقانِ مُتْعَبَيْنِ وَجائِعَيْنِ، فَجَلَسا تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَهَمَّا بِتَناوُلِ الطَّعامِ، وَإِذا بِصَبِيٍّ صَغيرٍ يَنْظُرُ إِلى الطَّعامِ بِعَيْنَيْنِ زائِغَتَيْنِ، تَبْدو فيهِما قَسْوَةُ الجوعِ، وَتُشِعُّ مِنْهُما مَرارَةُ الحِرْمانِ.

أَمَرَ «بشوش» صَديقَهُ المَلِكَ أَنْ يُعْطِيَ الطَّعامَ لِلصَّبِيِّ، وَيَكْتَفِيا بِقَدْرٍ قَليلٍ يَسُدُّ الرَّمَقَ. اِلْتَهَمَ الصَّبِيُّ الطَّعامَ الْتِهامًا، وَبَعْدَ أَنْ فَرَغَ سَأَلَهُ «بشوش» عَنْ سِرِّ وُجودِهِ في هَذا المَكانِ وَحيدًا، فَقالَ الصَّبِيُّ:

«أَبي شَيْخٌ مَريضٌ، وَقَدْ خَرَجْتُ مُنْذُ فَتْرَةٍ لأَبْحَثَ عَنْ شَيْءٍ نَأْكُلُهُ أَوْ عَمَلٍ أَتَكَسَّبُ مِنْهُ لِشِراءِ الدَّواءِ لأَبي، وَلَكِنَّ سوءَ الحَظِّ يُصادِفُني؛ فَأَنا لا أُتْقِنُ أَيَّ عَمَلٍ، وَكُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أَفْتَحَ دُكّانًا صَغيرًا بِجوارِ المَنْزِلِ، أَبيعُ فيهِ المُرَطِّباتِ، وأَعيشُ مِنْ دَخْلِهِ أنا وَأَبي.»

«دَعْنا نَزُرْ أَباكَ في مَنْزِلِهِ. هَيّا بِنا.»



تَقَدَّمَهُما الصَّبِيُّ، وَبَعْدَ حَوالي ساعَةٍ وَجَدا نَفْسَيْهِما في كُوخٍ صَغيرٍ، وَأَمامَهُما عَلى الأَرْضِ شَيْخٌ مُمَدَّدٌ، مَنْهوكُ القُوى، زائِغُ البَصَرِ، فَطَلَبَ «بشوش» مِنْ صَديقِهِ أَنْ يَأْخُذَ الغُلامَ، وَيَذْهَبا لِشِراءِ فِراشٍ وَدَواءٍ لِلشَّيْخِ. وَفي هَذِهِ المَرَّةِ لَمْ يُجادِلْهُ المَلِكُ «شحيح» طويلاً.



وَبَعْدَ انْصِرافِهِما، أَخَذَ «بشوش» يُنَظِّفُ المَكانَ وَيُرَتِّبُهُ، وَيَتَبادَلُ الحَديثَ مَعَ الشَّيْخِ. وَعادَ المَلِكُ وَالصَّبِيُّ بِالدَّواءِ والفِراشِ وَالطَّعامِ وَبَعْضِ ثِمارِ الفاكِهَةِ أَيْضًا.

وَأَمَرَ «بشوش» صَديقَهُ أَنْ يُعْطِيَ الصَّبِيَّ المالَ اللازِمَ لِفَتْحِ الدُّكّانِ؛ فاضْطَرَبَ المَلِكُ «شحيح» أَوَّلَ الأَمْرِ، ثُمَّ أَذْعَنَ دونَ جِدالٍ. وَانْصَرَفا تُلاحِقُهُما الدَّعَواتُ بِالسَّعادَةِ وَطولِ العُمْرِ.

وَفي الطَّريقِ، لاحَظَ «بشوش» أَنْ صَديقَهُ المَلِكَ يَبْدو سَعيدًا لأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتِهِ، وَيَبْتَسِمُ مِنْ حينٍ لآخَرَ.

وَكانَ النَّهارُ قَدْ أَوْشَكَ عَلى الانْتِهاءِ، وَبَدَأَ الظَّلامُ يُسْدِلُ أَسْتارَهُ عَلى المَكانِ، فَقَرَّرا العَوْدَةَ إِلى القَصْرِ.

وَفي طَريقِ العَوْدَةِ، تَوَقَّفَ «شحيح» عِدَّةَ مَرّاتٍ: رَفَعَ حَجَرًا كَبيرًا مِنْ طَريقِ المارَّةِ، وَأَعْطى بَعْضَ الماءِ لِكَلْبٍ ضالٍّ، وَساعَدَ سَيِّدَةً مُسِنَّةً في عُبورِ الشّارِعِ، وَذَلِكَ دونَ

أَوامِرَ مِنْ «بشوش.»

وَعِنْدَ وُصولِهِما إلى القَصْرِ، أَدْخَلَ المَلِكُ «شَحيح» يَدَهُ في جَيْبِهِ لِيُخْرِجَ مَفاتيحَ الخِزانَةِ، وَيَطْمَئِنَّ على النُّقودِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْهُ، وَدَهِشَ «بشوش» عِنْدَما وَجَدَ صَديقَهُ يَضْحَكُ وَيَضْحَكُ حَتّى سالَتِ الدُّموعُ مِنْ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ الْتَفَتَ ناحِيَةَ «بشوش» قائِلًا:

«أَتَدْري، يا صَديقي، أَيْنَ مَفاتيحي؟ إِنَّها في الخِزانَةِ. لَقَدْ نَسيتُها هذا الصَّباحَ عِنْدَما أَرَدْتُ أَنْ آخُذَ بَعْضَ المالِ مَعي.»

وَانْفَجَرَ الصَّديقانِ ضاحِكَيْنِ.

وَفي الصَّباحِ فَتَحَ المَلِكُ خَزائِنَهُ لِلشَّعْبِ، وَأَمَرَ بِتَوْزيعِ المالِ عَلَيْه بِالتَّساوي؛ فَوَجَدَ كُلُّ واحِدٍ مِنَ الرَّعِيَّةِ نَصيبًا يَكْفيهِ لِيَبْدَأَ عَمَلًا مُنْتِجًا وَيَعيشَ عيشَةً هانِئَةً.

حينَئِذٍ رَفْرَفَ الفَرَحُ عَلى النّاسِ، وَغَمَرَتْهُمُ البَهْجَةُ،

وَعَمَّتِ السَّعادَةُ، وَأَقْبَلَ الجَميعُ عَلى العَمَلِ وَالإِنْتاجِ لِيَمْلِكَ كُلُّ واحِدٍ ما يَسُدُّ جوعَهُ، وَيَسْتُرُ جَسَدَهُ، وَيُمَكِّنُهُ مِنَ العَيْشِ سَعيدًا راضِيًا، حَتّى أَطْلَقَ النّاسُ عَلى هَذِهِ المَمْلَكَةِ اسْمَ «مَمْلَكَةُ الهَناءِ.»

السَّعْدُ وَالبَرَكَةُ

اِخْتَلَفَ السَّعْدُ وَالبَرَكَةُ: أَيُّهُما أَنْفَعُ لِلإنْسانِ؟

قالَ السَّعْدُ: «أنا أَنْفَعُ لِلإنسانِ. أنا أَسْتَطيعُ أَنْ أُحَوِّلَ فَقْرَهُ إلى غِنًى، وَشَقاءَهُ إلى سَعادَةٍ، وَأَلَمَهُ إلى فَرَحٍ. أنا أَسْتَطيعُ أَنْ أُسْعِدَ أَيّامَهُ، وَأَجْعَلَ لِحَياتِهِ مَعْنًى وَهَدَفًا.»

وَقالَتِ البَرَكَةُ: «أنا أَنْفَعُ لِلإنْسانِ؛ فَبِدوني يُصْبِحُ غِناهُ فَقْرًا، وَسَعادَتُهُ شَقاءً، وَفَرَحُهُ أَلَمًا. بِدوني لا فائِدَةَ لَكَ أَيُّها السَّعْدُ. صَدِّقْني.»

أَجابَها السَّعْدُ: «فَلْيُثْبِتْ كُلُّ واحِدٍ ما يَقولُهُ بِالتَّجْرِبَةِ. سَأَبْدَأُ أنا.. سَأُسْعِدُ أَوَّلَ واحِدٍ يُصادِفُنا في الطَّريقِ، وَأَحُلُّ لَهُ جَميعَ مَشاكِلِهِ. اتَّفَقْنا؟»

قالَتِ البَرَكَةُ: «نَعَمْ، اتَّفَقْنا. فَلْنَنْتَظِرْ أَوَّلَ قادِمٍ عَلَيْنا.»

كانَ أَوَّلَ مَنْ قَدِمَ عَلَيْهِما فَلاحٌ فَقيرٌ لا يَكادُ يَجِدُ قوتَ نَفْسِهِ وَأَوْلادِهِ الثَّمانِيَةِ. كانَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِصَوْتٍ عالٍ، وَيَقولُ:

«يا رَبَّ الكَوْنِ، يا وَهّابُ، يا رَزّاقُ، ماذا أَفْعَلُ؟ أَكادُ أَجَنُّ! لا تَتَخَلَّ عَنّي يا إِلَهي في مِحْنَتي. أَلْجَأُ إِلَيْكَ يا رَبِّ، فَلَيْسَ أَمامي سِواكَ في شِدَّتي. يا رَحْمَنُ، يا رَحيمُ، ماذا أَفْعَلُ؟ طِفْلي الصَّغيرُ مَريضٌ، وَالدَّواءُ باهِظُ الثَّمَنِ، وَالآخَرونَ يَحْتاجونَ مَلابِسَ وَكُتُبًا. مِنْ أَيْنَ لي بِالطَّعامِ وَالشَّرابِ لِثَمانِيَةِ أَطْفالٍ وَأُمِّهِمْ؟ أَنا فَلاحٌ أَجيرٌ لا أَمْلِكُ شَيْئًا، وَلَيْسَ لي غَيْرُكَ أَلْجَأُ إِلَيْهِ، يا الله!»

سَمِعَ السَّعْدُ ما يَقولُهُ الفَلاحُ، فَوَجَدَ فيهِ ضالَّتَهُ المَنْشودَةَ، لِذَلِكَ أَلْقى عَلى الأَرْضِ مائَةَ جُنَيْهٍ في طَريقِ الفَلاحِ.

كانَ الفَلاحُ شارِدًا حَزينًا، يَمْشي بِلا هَدَفٍ، يُفَكِّرُ في حالِهِ، وَفَجْأَةً وَقَعَ نَظَرُهُ عَلى النُّقودِ فَلَمْ يُصَدِّقْ عَيْنَيْهِ، وَأَخَذَ يَدْعَكُهُما بِيَدَيْهِ، وَيَنْظُرُ وَيُعاوِدُ النَّظَرَ مَرَّةً وَمَرّاتٍ، حَتّى أَيْقَنَ أَنَّ ما يَراهُ عَلى الأَرْضِ حَقيقَةٌ لا خَيالٌ، وَأَنَّها فِعْلًا نُقودٌ – فَزَفَرَ زَفْرَةً طَويلَةً، وَكَأَنَّما يُزيحُ عَنْ صَدْرِهِ هَمًّا ثَقيلًا، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ إِلى السَّماءِ، وَقالَ:

«شُكْرًا لَكَ، يا رَبِّ! كَمْ أَنْتَ رَءوفٌ كَريمٌ!»

أَخَذَ الفَلاحُ النُّقودَ، وَذَهَبَ إِلى السّوقِ. اشْتَرى ما طابَ لِنَفْسِهِ، وَحَلا في عَيْنَيْهِ مِنَ الطَّعامِ وَالشَّرابِ، وَلَكِنَّهُ كانَ حَريصًا كُلَّ الحِرْصِ عَلى أَنْ لا يُبَدِّدَ النُّقودَ، أَوْ يُبَعْثِرَها فيما لا يُفيدُ؛ لأَنَّهُ تَذَوَّقَ – مِنْ قَبْلُ – مَرارَةَ الجوعِ وَالحِرْمانِ.

وَصَلَ إِلى بَيْتِهِ فَوَجَدَ كِبارَ أَبْنائِهِ لا يَزالونَ في مَدْرَسَتِهِمْ، وَصِغارَهُمْ يَلْعَبونَ مَعَ رِفاقِهِمْ، وَالأُمَّ مَشْغولَةً بِبَعْضِ الأَعْمالِ الَّتي تُدِرُّ عَلَيْها شَيْئًا مِنَ المالِ.

وَأَخَذَ يَبْحَثُ عَنْ مَكانٍ يُخَبِّئُ فيهِ النُّقودَ – مَكانٍ لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ مِنْهُمُ اكْتِشافَهُ.

وَراحَ يَقولُ لِنَفْسِهِ: «أَيْنَ أَضَعُها؟ يَجِبُ أَنْ أَتَصَرَّفَ بِسُرْعَةٍ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ أَحَدٌ.»

وَلَمْ يَجِدْ أَمامَهُ غَيْرَ وِعاءٍ كَبيرٍ يَضَعونَ فيهِ الدَّقيقَ. لَمْ يَكُنْ بِالوِعاءِ غَيْرُ القَليلِ مِنَ الدَّقيقِ، وَلَكِنَّهُ كانَ كافِيًا لِإِخْفاءِ النُّقودِ بِحَيْثُ لا يَراها أَحَدٌ.

وَنامَ لأوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ أيّامٍ طَويلَةٍ، وَهُوَ مُطْمَئِنُّ البالِ، قَريرُ العَيْنِ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ عَلى هَرْجٍ وَمَرْجٍ؛ فَالأطْفالُ عادوا مِنَ الخارِجِ، وَاكْتَشَفوا مَعَ أُمِّهِمْ ما أحْضَرَهُ أبوهُمْ مِنْ طَعامٍ وَشَرابٍ، فَأخَذوا يُهَلِّلونَ وَيَضْحَكونَ، وَالأُمُّ تَسْأَلُهُ في دَهْشَةٍ عَنْ مَصْدَرِ ذَلِكَ.

فَأجابَها أنَّهُ وَجَدَ عَمَلا بِأجْرٍ مَعْقولٍ؛ زَغْرَدَتِ الفَرْحَةُ في صَدْرِ الأُمِّ، وَشَرَعَتْ في إعْدادِ الطَّعامِ، وَأخَذَ الأطْفالُ يُساعِدونَها وَهُمْ يَتَصايَحونَ في فَرَحٍ وَسُرورٍ.

جَلَسَتِ الأسْرَةُ تَتَناوَلُ طَعامَها، الأطْفالُ يَمْضُغونَ وَيَتَلَذَّذونَ، وَالأُمُّ تَبْتَسِمُ ابْتِسامَةً واسِعَةً لِسَعادَةِ أطْفالِها، وَالأبُ يَشْعُرُ بِبَهْجَةٍ قَدْ فارَقَتْهُ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ.

قَضى الفَلاحُ لَيْلَتَهُ يُفَكِّرُ في أمْرِهِ.. لَنْ يَعْتَمِدَ عَلى هَذا المالِ، وَلا بُدَّ أنْ يُواصِلَ البَحْثَ عَنْ عَمَلٍ.

وَفي الصَّباحِ الباكِرِ خَرَجَ الأطْفالُ إلى مَدارِسِهِمْ،

وَخَرَجَ الأبُ لِيَبْحَثَ عَنْ عَمَلٍ، وظَلَّتِ الأم تَرْعى شُؤونَ المَنْزِلِ. وَبَعْدَ فَتْرَةٍ، سَمِعَتِ الأمُّ دَقًّا على البابِ، فَفَتَحَتْهُ فَوَجَدَتْ جارَتَها تَطْلُبُ قَليلاً مِنَ الدَّقيقِ، فَأَعْطَتِ الأمُّ الوِعاءَ كُلَّهُ لِجارَتِها؛ فَما بِهِ مِنْ دَقيقٍ لا يَكادُ يَكْفي لِصِناعَةِ شَيْءٍ ذي بالٍ، شَكَرَتْها الجارَةُ وَمَضَتْ إلى مَنْزِلِها.

في ذَلِكَ الوَقْتِ كانَ الفَلاحُ جادًّا في البَحْثِ عَنْ عَمَلٍ، يَنْتَقِلُ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ، حَتّى تَعِبَ وَكَلَّتْ قَدَماهُ، فَآثَرَ العَوْدَةَ إلى مَنْزِلِهِ. وَفَكَّرَ في أَنْ يَشْتَرِيَ طَعامًا لأَوْلادِهِ، وَلَكِنَّهُ تَذَكَّرَ أَنَّهُ لا يَحْمِلُ مَعَهُ نُقودًا تَفي بِذَلِكَ، فَعادَ مُسْرِعًا إلى المَنْزِلِ؛ لِيَأْخُذَ بَعْضًا مِنْها.

وَعِنْدَ وُصولِهِ إلى مَنْزِلِهِ، كانَتِ المُفاجَأَةُ تَنْتَظِرُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَجِدِ الوِعاءَ في مَكانِهِ. وَجَدَّ في البَحْثِ عَنْهُ، فَلَمّا فَشِلَ في الحُصولِ عَلَيْهِ ذَهَبَ إلى زَوْجَتِهِ يَسْأَلُها، فَدُهِشَتْ لِسُؤالِهِ، وَقالَتْ لَهُ إِنَّها أَعارَتْهُ لِجارَتِها؛ فَلَمْ

يَكُنْ بِهِ إلا القَليلُ مِنَ الدَّقيقِ.

كادَ الفَلاحُ يَسْقُطُ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ مِنْ هَوْلِ الصَّدْمَةِ، وَخَرَجَ مِنَ الدّارِ يَتَرَنَّحُ مِنْ شِدَّةِ الحُزْنِ وَقَسْوَةِ الأَلَمِ!

شاهَدَ السَّعْدُ وَالبَرَكَةُ الفَلاحَ، وَشَعَرا بِالأَلَمِ مِنْ أَجْلِهِ. اِبْتَسَمَتِ البَرَكَةُ قائِلَةً: «بِدوني لَمْ يَسْتَطِعِ الفَلاحُ الاحْتِفاظَ بِالنُّقودِ.»

قالَ لَها السَّعْدُ: «اِنْتَظِري قَليلاً. لَمْ نَنْتَهِ بَعْدُ.»

وَضَعَ السَّعْدُ مائَةَ جُنَيْهٍ أُخْرى في طَريقِ الفَلاحِ فَالْتَقَطَها بِسَعادَةٍ، وَشَكَرَ رَبَّهُ بِحَرارَةٍ؛ فَقَدْ عَوَّضَهُ خَيْرًا. ثُمَّ مَضى خارِجَ المَدينَةِ، حَيْثُ تَنْبَسِطُ بَعْضُ المَزارِعِ، وَتَرْتَفِعُ بَعْضُ شَجَراتٍ ظَليلَةٍ، وَجَلَسَ تَحْتَ شَجَرَةٍ يُفَكِّرُ: «لا.. لَنْ أُفارِقَ النُّقودَ في هَذِهِ المَرَّةِ، سَتَظَلُّ دائِمًا مَعي.»

وَأَخْرَجَ مِنْديلَهُ، وَوَضَعَ بِداخِلِهِ النُّقودَ، ثُمَّ عَقَدَ

الْمِنْدِيلَ، وَوَضَعَهُ بِجانِبِهِ عَلى الأَرْضِ.

كانَ الفَلاحُ مُتْعَبًا، فَأَدْرَكَهُ النَّوْمُ. وَاسْتَيْقَظَ عَلى صَوْتٍ بِجانِبِهِ، فَما كادَ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ، حَتّى رَأى حِدَأَةً كَبيرَةً تَلْتَقِطُ الْمِنْديلَ، وَتَطيرُ بِهِ في السَّماءِ!

وَشَلَّتِ الْمُفاجَأَةُ قُدْرَتَهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ حَراكًا، وَابْتَعَدَتِ الحِدَأَةُ بِالْمِنْديلِ.

أَصابَهُ الذُّهولُ، وَجَلَسَ صامِتًا لا يَتَحَرَّكُ، لا يَعْرِفُ كَمْ مِنَ الوَقْتِ مَضى عَلَيْهِ وَهُوَ عَلى هَذِهِ الحالِ.

وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وَفي مَكانٍ قَريبٍ مِنْهُ كانَتِ البَرَكَةُ تَقولُ لِلسَّعْدِ: «أَرَأَيْتَ؟ بِدوني لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا. لَنْ يَسْتَطيعَ صاحِبُكَ الفَلّاحُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِأَيِّ شَيْءٍ.»

أَجابَها السَّعْدُ: «أَعْطِني آخِرَ فُرْصَةٍ.»

قالَتِ البَرَكَةُ: «حَسَنًا، وَلَكِنْ تَذَكَّرْ جَيِّدًا أَنَّها آخِرُ فُرْصَةٍ لَكَ.»

شَعَرَ الفَلاحُ بِجَفافِ حَلْقِهِ، مِنْ شِدَّةِ الظَّمَأ، فَذَهَبَ لِيَشْرَبَ مِنَ النَّهْرِ؛ فَهُوَ قَريبٌ مِنْهُ، فَوَقَعَ بَصَرُهُ على مائَةِ جُنَيْهٍ ثالِثَةٍ، كانَ السَّعْدُ قَدْ وَضَعَها في طَريقِهِ، فَأَخَذَها واحْتَفَظَ بِها قائِلًا: «لَنْ تَضيعي مِنّي هَذِهِ المَرَّةَ. سَأَضَعُكِ داخِلَ مَلابِسي، وَأَجْعَلُكِ لَصيقَةً بِجِلْدي.»

وَمَدَّ يَدَه إِلى جَيْبِهِ الدّاخِلِيِّ وَوَضَعَ النُّقودَ، ثُمَّ مالَ بِجِسْمِهِ؛ لِيَغْسِلَ يَدَيْهِ، وَيَمْلأها مِنْ ماءِ النَّهْرِ؛ كَيْ يَرْوِيَ عَطَشَهُ. وَلَكِنَّهُ ما كادَ يَميلُ حَتّى سَقَطَتِ النُّقودُ في الماءِ، وَقَبْلَ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ لِيَلْتَقِطَها، كانَتْ هُناكَ سَمَكَةٌ كَبيرَةٌ قَدِ ابْتَلَعَتْها، وَغاصَتْ في الأَعْماقِ، كَأَنَّما كانَتْ مَعَها عَلى ميعادٍ!

لَمْ يُصَدِّقِ الفَلّاحُ ما رَأى، وَأَخَذَ يُتَمْتِمُ بِصَوْتٍ عالٍ:

«لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ! آمَنْتُ بِكَ، يا رَبِّ. هَذِهِ النُّقودُ لَيْسَتْ لي. لَيْسَتْ مِنْ نَصيبي؛ لِذَلِكَ أَفْقِدُها بِسُرْعَةٍ.»

كانَ السَّعْدُ وَالبَرَكَةُ يُراقِبانِ ما حَدَثَ، فَقالَ السَّعْدُ: «لَقَدْ فَقَدْتُ الأمَلَ في إسْعادِ الفَلاحِ وَإصْلاحِ حالِهِ. إنَّهُ دَوْرُكِ الآنَ، تُرى ماذا سَتَفْعَلينَ؟»

قالَتِ البَرَكَةُ: «سَتَرى. تَعالَ مَعي.»

عادَ الفَلاحُ إلى مَنْزِلِهِ، مَكْدودًا مَحْزونًا، يَمْشي بِخُطُواتٍ بَطيئَةٍ واهِنَةٍ؛ فَهُوَ لا يَمْلِكُ شَيْئًا، وَلا يَسْتَطيعُ أنْ يَصْنَعَ شَيْئًا. وَفي طَريقِ عَوْدَتِهِ وَضَعَتِ البَرَكَةُ أمامَهُ بِضْعَةَ قُروشٍ، فَأسْرَعَ بِالْتِقاطِها، حامِدًا رَبَّهُ عَلى تَفَضُّلِهِ عَلَيْهِ، شاكِرًا لَهُ رَأفَتَهُ بِهِ، وَرَحْمَتَهُ لَهُ.

وَدَبَّتْ فيهِ القُوَّةُ وَالحَيَوِيَّةُ، وَنَشِطَتْ خُطُواتُهُ، وَأسْرَعَ نَحْوَ بَيْتِهِ. وَعِنْدَ عَتَبَةِ البابِ صاحَ مِنْ شِدَّةِ المُفاجَأةِ؛ فَقَدْ وَجَدَ أمامَهُ وِعاءَ الدَّقيقَ الَّذي اسْتَعارَتْهُ الجارَةُ كَما هُوَ، فَسَألَ زَوْجَتَهُ مُسْتَفْسِرًا: «مَنْ أعادَ هَذا الوِعاءَ؟»

أجابَتْهُ: «لَمْ يُعْجِبِ الدَّقيقُ الجارَةَ. قالَتْ إِنَّهُ قَديمٌ، بِهِ سوسٌ وَلا يَصْلُحُ لِشَيْءٍ.»

اِنْتَظَرَ الفَلاحُ خُروجَ زَوْجَتِهِ مِنَ المَنْزِلِ لِبَعْضِ الأَمْرِ، وَأَمْسَكَ الوِعاءَ بِلَهْفَةٍ، وَمَدَّ يَدَهُ داخِلَهُ، وَكَمْ كانَتْ دَهْشَتُهُ كَبيرَةً حينَ وَجَدَ النُّقودَ! وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ دَخَلَ الأَوْلادُ المَنْزِلَ وَهُمْ يَتَصايَحونَ، وَيَطْلُبونَ الطَّعامَ؛ فَقالَ لَهُمْ أَبوهُمْ:

«سَأَذْهَبُ حالاً لأَحْضِرَ لَكُمُ الطَّعامَ. اِنْتَظِروني، لَنْ أَتَأَخَّرَ.»

أَحْضَرَ الرَّجُلُ طَعامًا لأَوْلادِهِ، وَفي الطَّريقِ كانَ يَقْدَحُ ذِهْنَهُ، وَيُعْمِلُ فِكْرَهُ: إِنَّهُ إِنْ ظَلَّ عَلى هَذِهِ الحالِ فَسَتَنْفَدُ النُّقودُ قَبْلَ أَنْ يَجِدَ عَمَلًا، وَيَجِبُ أَنْ يَكونَ حَريصًا في إِنْفاقِهِ. وَقالَ في نَفْسِهِ: «لَنْ أُنْفِقَها كُلَّها؛ لأَنَّني لَمْ أَجِدْ عَمَلًا حَتّى الآنَ، وَلا أَدْري مَتى أَسْتَطيعُ الحُصولَ عَلَيْهِ. مِنَ الخَيْرِ لي أَنْ أَشْتَرِيَ صِنّارَةً، وَأَصْطادَ بِها

السَّمَكَ؛ فَالنَّهْرُ قَريبٌ، وَبِهِ سَمَكٌ كَثيرٌ، حَتّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيَّ بِعَمَلٍ آخَرَ.»

اِشْتَرى الفَلاحُ الصِّنّارَةَ وَجَلَسَ عَلى حافَةِ النَّهْرِ، وَأَلْقى الصِّنّارَةَ في الماءِ، يَبْتَغي فَضْلَ اللهِ، وَلَمْ يَمْضِ غَيْرُ وَقْتٍ قليلٍ حَتّى رَزَقَهُ اللهُ رِزْقًا طَيِّبًا، وَاصْطادَ سَمَكًا يَكْفي أَسْرَتَهُ، دونَ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا مِمّا مَعَهُ مِنْ مالٍ.

جَلَسَ الرَّجُلُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ يُفَكِّرُ: «الآنَ سأَجْمَعُ بَعْضَ الحَطَبِ لِنَسْتَطيعَ شَيَّ السَّمَكِ، فَلا يوجَدُ في المَنْزِلِ أَيُّ شَيْءٍ.»

شَرَعَ الرَّجُلُ يَجْمَعُ أَغْصانَ الشَّجَرِ وَأَوْراقَهُ المُتَساقِطَةَ، وَأَزْعَجَتْ حَرَكَتُهُ في الأَرْضِ بَعْضَ الطُّيورِ، فَطارَتْ مِنْ فَوْقِ أَغْصانِ إِحْدى الأَشْجارِ، فَاهْتَزَّ الغُصْنُ وَسَقَطَ مِنْهُ شَيْءٌ، سَمِعَ لَهُ الرَّجُلُ وَقْعًا فَوْقَ الأَرْضِ، فَذَهَبَ يَنْظُرُ ما حَدَثَ، وَكانَتِ المُفاجَأَةُ الثّانِيَةُ! إِنَّهُ مِنْديلُهُ الَّذي اخْتَطَفَتْهُ الحِدَأَةُ، وَبِداخِلِهِ الجُنَيْهاتُ المائَةُ الَّتي كانَ قَدْ

عَقَدَهُ عَلَيْها.

لَمْ يُصَدِّقْ نَفْسَهُ، وَخَرَّ ساجِدًا لِرَبِّهِ؛ فَقَدْ كانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْهِ عَظيمًا، وَنِعْمَتُهُ سابِغَةً، لا يَسْتَطيعُ الوَفاءَ بِشُكْرِهِما مَهْما اجْتَهَدَ.

أَخَذَ الرَّجُلُ الحَطَبَ وَالسَّمَكَ وَعادَ إِلى المَنْزِلِ. كانَ الأَطْفالُ في انْتِظارِهِ، فَأَشْعَلَ الحَطَبَ. وَبَيْنَما هُوَ يَشُقُّ بَطْنَ سَمَكَةٍ كَبيرَةٍ لِيُنَظِّفَها، وَجَدَ شَيْئًا مُذْهِلًا - وَجَدَ المائَةَ جُنَيْهٍ الَّتي سَقَطَتْ في الماءِ وَابْتَلَعَتْها السَّمَكَةُ.

لَمْ يَتَمالَكِ الفَلاحُ نَفْسَهُ، وَأَخَذَ يَرْقُصُ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ، وَالأَطْفالُ يَنْظُرونَ إِلَيْهِ في دَهْشَةٍ، فَقَدْ زايَلَهُ وَقارُهُ، وَفارَقَهُ تَجَهُّمُهُ، وَتَخَلّى عَنْهُ.. وَأَخَذوا يَرْقُصونَ مَعَهُ وَيَضْحَكونَ، وَإِنْ كانوا لا يَفْهَمونَ.

أَكَلَ الفَلاحُ وَأُسْرَتُهُ السَّمَكَ، وَقامَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ إِلى شَأْنِهِ: بَعْضُهُمْ يُذاكِرُ دُروسَهُ وَالبَعْضُ الآخَرُ يَلْعَبُ،

وَهُمْ يَشْعُرونَ بِالسَّعادَةِ وَالشِّبَعِ. وَفي اليَوْمِ التّالي، وَجَدَ الفَلاحُ عَمَلًا وَبَعْدَ فَتْرَةٍ قَليلَةٍ، اسْتَطاعَ بِناءَ مَنْزِلٍ أَكْبَرَ لَهُ وَلأُسْرَتِهِ، وَاسْتَقَرَّتْ أَحْوالُهُ، وَعاشَ في سَعادَةٍ وَهَناءٍ، وَلَمْ يَعُدْ يُعاني هَمًّا في إِطْعامِ أَوْلادِهِ وَكِسْوَتِهِمْ، أَوْ شِراءِ الدَّواءِ إِذا مَرِضَ أَحَدُهُمْ.

قالَ السَّعْدُ لِلْبَرَكَةِ: «فِعْلًا، أُقِرُّ لَكِ بِفَضْلِكِ، وَأَعْتَرِفُ بِمَقْدِرَتِكِ، وَأَشْهَدُ أَنَّني بِدونِكِ لا أَسْتَطيعُ شَيْئًا، وَلا يُصْبِحُ لأَعْمالي فائِدَةٌ وَلا جَدْوى.»

اِبْتَسَمَتِ البَرَكَةُ في تَواضُعٍ يُمازِجُهُ السُّرورُ، وَسَعادَةٍ تُمازِجُها الكِبْرِياءُ.

الإِخْوَةُ الثَّلاثَةُ

كانَ العَمُّ «حَسن» صَيّادًا فقيرًا، رَزَقَهُ الله ابنًا وَحيدًا، سَمّاهُ «مُحَمَّد»، وَكانَتْ تَسْكُنُ إلى جِوارِهِ امْرَأَةٌ، تُوُفِّيَ عَنْها زَوْجُها، وَتَرَكَ لَها وَلَدَيْنِ: أَكْبَرُهُما «أحمد»، وَأَصْغَرُهُما «عليّ.» وَكانَ العَمُّ «حَسن» يَعْطِفُ على زَوْجَةِ جارِهِ، وَيُعْطيها مِمّا رَزَقَهُ الله؛ فَقَدْ كانَتْ أَشَدَّ مِنْهُ فَقْرًا، لَمْ يَتْرُكْ لَها زَوْجُها مالًا وَلا مَتاعًا، وَكانَ وَلَداها صَغيرَيْنِ، لا يَسْتَطيعانِ العَمَلَ، وَلا يَقْويانِ عَلَيْهِ.

وَلَمْ تَمْضِ غَيْرُ سَنَواتٍ مَعْدودَةٍ – حَتَّى مَرِضَتِ المَرْأَةُ، وَفارَقَتِ الحَياةَ، فَضَمَّ العَمُّ «حَسن» الوَلَدَيْنِ إِلى أُسْرَتِهِ، وَكانَ يَقولُ إِنَّ الله رَزَقَهُ بِثَلاثَةِ أَبْناءٍ، وَيَصِفُهُمْ بِالأَكْبَرِ وَالأَوْسَطِ وَالأَصْغَرِ. وَكانَ أَصْغَرُهُمْ

ابْنُهُ «مُحَمَّد»، وَلَكِنَّهُ أَكْثَرُهُمْ شَجاعَةً، وَأَشَدُّهُمْ صَبْرًا، وَأَحَدُّهُمْ ذَكاءً، بِالرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ سِنِّهِ، وَضَآلَةِ حَجْمِهِ.

وَذاتَ يَوْمٍ، عادَ العَمُّ «حسن» مِنَ الصَّيْدِ مَريضًا، يَتَلَوّى مِنْ شِدَّةِ الأَلَمِ، لا يَكادُ يَقْوى عَلى الحَرَكَةِ، يَجُرُّ قَدَمَيْهِ جَرًّا. ما إِنْ دَخَلَ دارَهُ حَتّى لَزِمَ فِراشَهُ، وظَلَّ طَريحَ الفِراشِ أَيّامًا طَويلَةً، فَلَمّا أَحسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ جَمَعَ أَوْلادَهُ الثَّلاثَةَ، وَقالَ لَهُمْ:

«يا أَبْنائي، أَشْعُرُ بِدُنُوِّ أَجَلي، وَأَنّي عَما قَريبٍ، مُفارِقُكُمْ إِلى غَيْرِ رَجْعَةٍ، وَإِنّي أوصيكُمْ أَنْ تَخْرُجوا لِلْبَحْثِ عَنْ عَمَلٍ، وَأَنْ تَعْتَمِدوا عَلى أَنْفُسِكُمْ.

فَلْيَذْهَبْ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ في طَريقٍ، فَإِذا يَسَّرَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَنَجَحَ في عَمَلِهِ، وَاسْتَقَرَّتْ حَياتُهُ - بَحَثَ عَنْ أَخَوَيْهِ، وَاسْتَدْعاهُما لِلْعَيْشِ مَعَهُ.»

وَما انْقَضَتْ غَيْرُ أَيّامٍ قَليلَةٍ عَلى هَذا الحَديثِ، حَتّى فارَقَ العَمُّ «حسن» الحَياةَ، وَخَرَجَ الأَوْلادُ الثَّلاثَةُ، كُلُّ

فِي طَرِيقٍ لِلْبَحْثِ عَنْ عَمَلٍ.

كانَ أَكْبَرُهُمْ كَسولًا، يَضيقُ بِالعَمَلِ وَيَنْفِرُ مِنْهُ، يُحِبُّ أَنْ يَتَمَتَّعَ بِطَيِّباتِ الحَياةِ وَلَذائِذِها، دونَ أَنْ يَبْذُلَ في سَبيلِ ذَلِكَ جَهْدًا، أَوْ يَتَحَمَّلَ مَشَقَّةً، وَإِنَّما يَعيشُ، عالَةً عَلى أَبيهِ، وَيَعْتَمِدُ عَلى ما يُقَدِّمُهُ لَهُ أَخَواهُ؛ لأَنَّهُ كَسولٌ قَليلُ الخِبْرَةِ، ضَعيفُ الهِمَّةِ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْهَضَ بِأَيِّ عَمَلٍ، وَلَمْ يُوَفَّقْ إِلى النّجاحِ في أَيِّ سَبيلٍ.

أَمّا «عَلِيّ» فَكانَ صُلْبَ الرَّأْيِ عَنيدًا، لا يَسْمَعُ لِرَأْيِ أَحَدٍ، وَلا يَسْتَشيرُ في أَمْرٍ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّ كُلَّ ما يَفْعَلُهُ أَوْ يَقولُهُ هُوَ الصَّوابُ الَّذي لا صَوابَ بَعْدَهُ، وَأَنَّ الآخَرينَ يَجْهَلونَ كُلَّ شَيْءٍ. وَلِعِنادِهِ وَتَصَلُّبِهِ لَمْ يُكْتَبْ لَهُ التَّوْفيقُ في أَيِّ عَمَلٍ.

أَمّا الصَّغيرُ «مُحَمَّد» فَكانَ جَلْدًا صَبورًا نَشيطًا حَكيمًا، لا يَضيقُ بِعَمَلٍ مَهْما بَدا صَغيرًا، ما دامَ عَمَلًا شَريفًا، لا يَحُطُّ مِن قَدْرِ صاحِبِهِ، وَيُحَقِّقُ فائِدَةً لَهُ

وَلِغَيْرِهِ. وَكانَ لا يَبْخَلُ عَلى الآخَرينَ بِالْمساعَدَةِ، وَلا يَبْخَلُ بِالمُعاوَنَةِ.. فَمَضى في طَريقِهِ يَبْحَثُ وَيَسْأَلُ، لا يَكِلُّ وَلا يَمَلُّ، حَتّى قادَتْهُ قَدَماهُ إلى حَدائِقِ المَلِكِ وَمَزارِعِهِ، وَهُناكَ الْتَقى المَسْؤولَ عَنْها، وَكانَ رَجُلًا تَجاوَزَ سِنَّ الشَّبابِ، لَهُ خِبْرَتُهُ وَتَجْرِبَتُهُ.

سَأَلَهُ «مُحَمَّد» عَنْ عَمَلٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ نَظْرَةً ثاقِبَةً فاحِصَةً، وَأَدْرَكَ حُبَّهُ لِلْعَمَلِ، وَصَبْرَهُ عَلَيْهِ، فَقالَ لَهُ:

«حَسَنًا، يا بُنَيَّ، لَقَدْ جِئْتَ في مَوْعِدِكَ، في مَوْسِمِ الحَصادِ، وَقَدْ قَلَّتِ الأَيْدي العامِلَةُ، فَمُعْظَمُ عُمّالِ الزِّراعَةِ انْصَرَفوا إِلى أَعْمالٍ أُخْرى: بَعْضُهُمْ خَرَجَ لِلصَّيْدِ، وَالبَعْضُ الآخَرُ اسْتَهْوَتْهُ التِّجارَةُ أَوِ الصِّناعَةُ، فَهَلْ تَسْتَطيعُ، يا بُنَيَّ، أَنْ تَحْصُدَ هَذا الحَقْلَ خِلالَ شَهْرٍ، كَيْلا يَهْلِكَ المَحْصولُ؟»

«في أُسْبوعٍ واحِدٍ بِإِذْنِ اللهِ.»

«أَسْبوعٌ! وَحْدَكَ؟ فَلْتَقُلْ شَهْرًا، يا بُنَيَّ، وَاللهُ يُعينُكَ.»

أَقْبَلَ «مُحَمَّد» على العَمَلِ بِهِمَّةٍ لا تَعْرِفُ الكَلَلَ، وَعَزيمَةٍ لا تَعْرِفُ المَلَلَ، فَكانَ يَعْمَلُ لَيْلًا وَنَهارًا، لا يَمْنَحُ جَسَدَهُ غَيْرَ قِسْطٍ ضَئيلٍ مِنَ الرّاحَةِ يُمَكِّنُهُ مِنَ المُثابَرَةِ عَلى العَمَلِ، حَتّى يُنْجِزَ ما وَعَدَ بِهِ، وَفي الزَّمَنِ الَّذي حَدَّدَهُ.

واسْتَطاعَ، بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفيقِهِ وَصَبْرِهِ وَكِفاحِهِ، أَنْ يُحَقِّقَ ما يُريدُ.

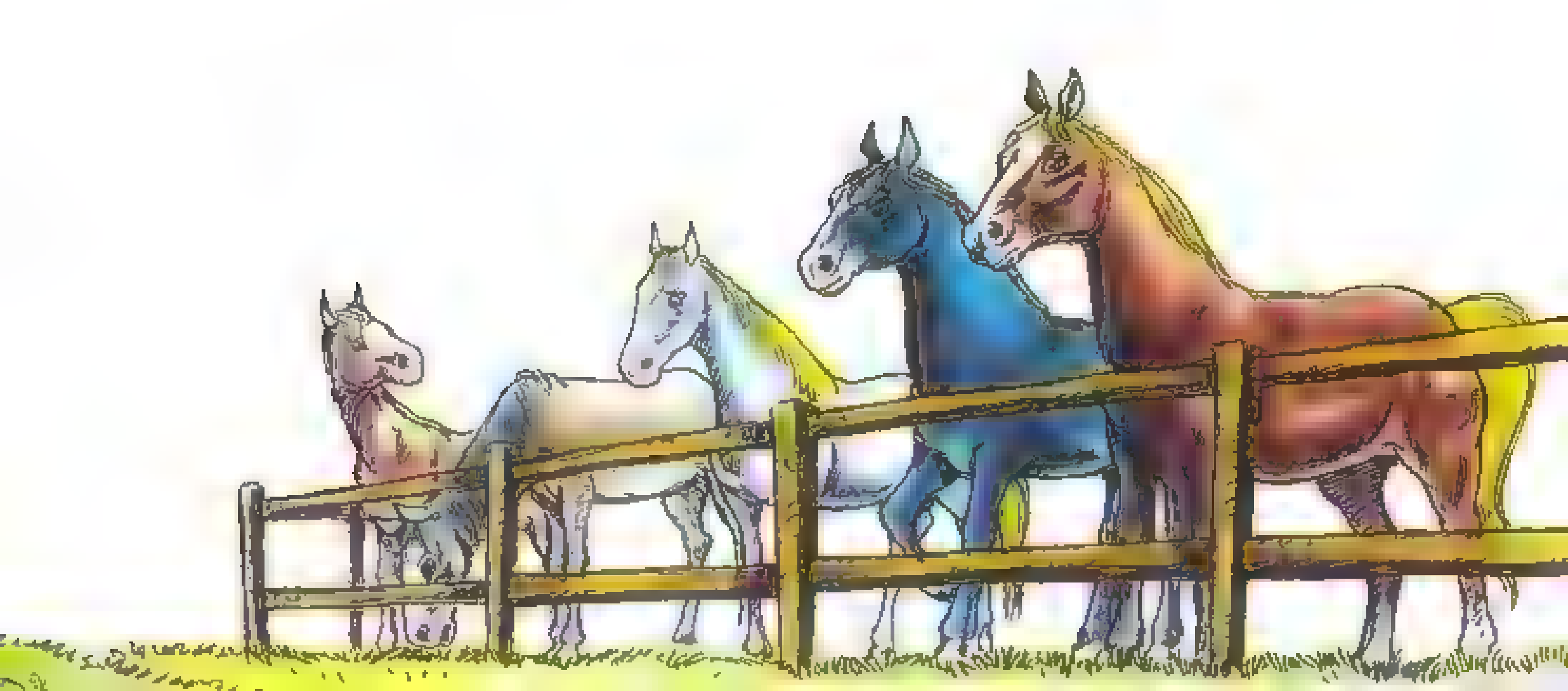
دَهِشَ الرَّجُلُ المَسْؤولُ عَنْ مَزارِعِ المَلِكِ وَحَدائِقِهِ، واصْطَحَبَ «محمدًا» إلى المَلِكِ، الَّذي شَكَرَ لَهُ حُسْنَ صَنيعِهِ، وَفَضْلَهُ في إِنْقاذِ مَحْصولِهِ مِنَ الهَلاكِ، وَعَيَّنَهُ مُشْرِفًا عَلى إِسْطَبْلاتِ الخَيْلِ.

لَمْ يَدَّخِرْ «مُحَمَّد» جَهْدًا في عَمَلِهِ، فَكانَ يَبْدَأُ يَوْمَهُ في الصَّباحِ الباكِرِ، يُنَظِّفُ المَكانَ، ثُمَّ يَهْتَمُّ بِالخَيْلِ، فَيُطْعِمُها وَيَسْقيها، وَيَعْمَلُ عَلى تَنْظيفِها، وَيَعْتَني

بِصِحَّتِها، حَتّى غَدَتْ في أَحْسَنِ حالٍ.

وَذاتَ يَوْمٍ لاحَظَ أَنَّ هُناكَ مَنْ يَسْرِقُ طَعامَ الخَيْلِ أَثْناءَ اللَّيْلِ، فَقَرَّرَ أَنْ يَتَرَصَّدَ لِلِّصِّ وَيُمْسِكَ بِهِ، فَكانَ يَقْضي لَيْلَهُ مُسْتَيْقِظًا؛ يَتَظاهَرُ بِالنَّوْمِ وَلا يَنامُ، حَتّى كانَتْ لَيْلَةٌ سَمِعَ صَهيلًا جَميلًا، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ جَيِّدًا، لِيَرى فَرَسًا ذَهَبِيَّةً جَميلَةً، تَصولُ وَتَجولُ في الحَظيرَةِ، وَتَأْكُلُ طَعامَ الخَيْلِ، فَتَرَبَّصَ بِها، وَقَفَزَ مُحاوِلاً السَّيْطَرَةَ عَلَيْها.

مَضَتْ ساعاتٌ وَساعاتٌ، وَالفَرَسُ تَجْري هُنا وهُناكَ، وتُحاوِلُ أَنْ تَطْرَحَهُ أَرْضًا، وَلَكِنَّهُ مُتَمَكِّنٌ مُتَماسِكٌ فَوْقَها، حَتّى اسْتَطاعَ السَّيْطَرَةَ عَلَيْها وَتَرْويضَها، ثُمَّ



حَبَسَها مَعَ بَقِيَّةِ الخَيْلِ في الإسْطَبْلِ.

وَفي الصَّباحِ، ذَهَبَ إلى المَلِكَ، وَقالَ لَهُ إنَّهُ سَيَعْرِضُ عَلَيْهِ أمْرًا هامًّا، واصْطَحَبَهُ إلى الإسْطَبْلِ، وَأدْخَلَهُ حَيْثُ توجَدُ الفَرَسُ الذَّهَبِيَّةُ.



لَمْ يَسْتَطِعِ المَلِكُ أَنْ يُخْفِيَ إِعْجابَهُ بِها، وَقَصَّ عَلَيْهِ «مُحَمَّد» كَيْفَ أَمْسَكَ بِها، فَشَكَرَهُ المَلِكُ عَلى جَميلِ رِعايَتِهِ، وَحُسْنِ دِرايَتِهِ، وَعَيَّنَهُ مُسْتَشارًا لَهُ.

شَعَرَ «مُحَمَّد» أَنَّ الحَياةَ قَدِ ابْتَسَمَتْ لَهُ، وَأَنَّ الأُمورَ اسْتَقَرَّتْ، فَأَخَذَ يَبْحَثُ عَنْ أَخَوَيْهِ، حَتّى وَجَدَهُما في أَسْوَإِ حالٍ، وَفي أَشَدِّ الاحْتِياجِ، فَبَذَلَ جَهْدَهُ في العِنايَةِ بِهِما، وَالسَّهَرِ عَلى راحَتِهِما، حَتّى اسْتَرَدّا قُوَّتَهُما، وَاسْتَعادا عافِيَتَهُما. ثُمَّ طَلَبَ مِنَ المَلِكِ أَنْ يُلْحِقَهُما بِالعَمَلِ عِنْدَهُ؛ فَعَيَّنَ أَحَدَهُما حارِسًا، وَالآخَرَ مُزارِعًا.

اِكْتَسَبَ «مُحَمَّد» ثِقَةَ المَلِكِ وَحُبَّهُ، مِمّا جَعَلَ كَثيرينَ يَغارونَ مِنْهُ، وَيَحْقِدونَ عَلَيْهِ لِمَكانَتِهِ لَدى المَلِكِ. وَكانَ أَخَواهُ أَشَدَّ النّاسِ غَيْظًا مِنْهُ، فَأَخَذا يُدَبِّرانِ لَهُ المَكائِدَ، وَيَحيكانِ لَهُ الدَّسائِسَ، وَيَعْمَلانِ عَلى التَّخَلُّصِ مِنْهُ، لِيَخْلُوَ لَهُما وَجْهُ المَلِكِ.

عَلِمَ «أَحْمَد» وَ«عَلِيّ» مُصادَفَةً أَنَّ المَلِكَ كانَتْ لَهُ

ابْنَهٌ جَميلَةٌ اخْتُطِفَتْ مُنْذُ أَعْوامٍ، فَحَزِنَ المَلِكُ عَلَيْها، وَجَدَّ في البَحْثِ عَنْها، حَتّى غَلَبَهُ اليَأسُ، وَفَقَدَ الأمَلَ في العُثورِ عَلَيْها، فَأذْعَنَ لِلْواقِعِ، وَحاوَلَ أنْ يَنْساها وَيَتَعَزّى عَنْها، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ إلى ذَلِكَ سَبيلًا، فَذِكْراها تُعاوِدُهُ، وَصورَتُها تُخايِلُهُ، فَلا يَمْلِكُ إلا الدُّموعَ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ انْهِمارًا، وَتَفيضُ أنْهارًا.

وَفي صَباحٍ، أشْرَقَتْ شَمْسُهُ، وَصَفا جَوُّهُ، جَلَسَ «أَحْمَد» وَ «عَلِيّ» تَحْتَ نافِذَةِ غُرْفَةِ المَلِكِ، يَتَحَدَّثانِ بِصَوْتٍ عالٍ؛ كَيْ يَصِلَ كَلامُهُما إلى المَلِكِ، وَذَكَرا قِصَّةَ الابْنَةِ المَخْطوفَةِ، وَحُزْنَ المَلِكِ عَلَيْها، وَتَعاطُفَهُما مَعَهُ.

وَقالَ أحَدُهُما لِلآخَرِ: «إنَّنا يَجِبُ أنْ نُعيدَ البَسْمَةَ إلى شَفَتَي المَلِكِ، وَنَجْزِيَهُ عَنْ إحْسانِهِ إلَيْنا، فَنَبْحَثَ عَنِ ابْنَتِهِ.»

فَقالَ الآخَرُ: «وَما لَنا نَذْهَبُ بَعيدًا؟ إنَّ «محمدًا»

لَوْ أَخْلَصَ لِلْمَلِكِ لَعَثَرَ عَلَيْها في سُرْعَةٍ فائِقَةٍ - فَهُوَ الوَحيدُ الَّذي يُمْكِنُهُ ذَلِكَ.»

أَثارَ هَذا الحَديثُ شُجونَ المَلِكِ، بِما حاوَلَ أَنْ يَنْساهُ، فَاسْتَدْعَى «محمدًا» وَقَصَّ عَلَيْهِ ما سَمِعَهُ مِنْ حَديثٍ.

أَدْرَكَ «مُحَمَّد» ما يُحاوِلُ أَخَواهُ أَنْ يَفْعَلا، فَقالَ لِلْمَلِكِ:

«أُوافِقُ، يا مَوْلايَ، وَلَكِنّي لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَبْحَثَ عَنِ ابْنَتِكَ وَحْدي، وَأَحْتاجُ إلى «أَحْمَد» وَ«عَلِيّ»، فَهُما القادِرانِ على شَدِّ أَزْري وَمُسانَدَتي.»

اِسْتَدْعاهُما المَلِكُ في الحالِ، وَأَمَرَهُما بِإِعْدادِ أَنْفُسِهِما لِلسَّفَرِ في الصَّباحِ مَعَ «مُحَمَّد»، لِلْبَحْثِ عَنِ ابْنَتِهِ المُخْتَفِيَةِ مُنْذُ أَعْوامٍ.

لَمْ يَجْرُؤْ أَحَدُهُما عَلى المُعارَضَةِ، وَاضْطُرّا لِلرَّحيلِ مَعَ أَخيهِما، وَهُما في ضيقٍ مِنْهُ؛ فَقَدْ مَكَرا بِهِ، وَكادا لَهُ، فَكانَ أَشَدَّ مِنْهُما مَكْرًا، وَأَبْلَغَ كَيْدًا!

رَحَلَ الثَّلاثَةُ مَعًا، وَمَعَهُمُ الزّادُ وَالمالُ، لِلْبَحْثِ عَنِ الأميرَةِ المَفْقودَةِ. لَمْ يَكُنْ «مُحَمَّد» يَدْري كَيْفَ يَبْدَأُ البَحْثَ؟ أَوْ أَيْنَ يُرَكِّزُ بَحْثَهُ؟ وَهَلِ الأميرَةُ ما زالَتْ حَيَّةً تُرْزَقُ أَمْ فارَقَتِ الحَياةَ؟ وَلَكِنَّهُ طَرَدَ اليَأْسَ مِنْ صَدْرِهِ، وَشَحَنَ بِالأَمَلِ قَلْبَهُ، فَأَقْبَلَ عَلى البَحْثِ بِجِدٍّ وَاجْتِهادٍ، يَسْأَلُ هُنا وَهُناكَ، وَيَجْمَعُ المَعْلومَةَ بَعْدَ الأُخْرى، وَيَقْتَفي أَثَرَها، وَأَخَواهُ يَكْتَفِيانِ بِمُراقَبَتِهِ، وَلا يَبْذُلانِ أَيَّ جَهْدٍ.

مَضَتِ الأَيّامُ، بَلِ الأَسابيعُ وَالشُّهورُ، وَ«مُحَمَّد» ما زالَ يَبْحَثُ هُنا وَهُناكَ، حَتّى صادَفَ شَيْخًا عَجوزًا، يَعيشُ وَحيدًا في الصَّحْراءِ، اسْتَضافَهُ مَعَ أَخَوَيْهِ بِضْعَ لَيالٍ. وَفي أَثْناءِ حَديثِهِ مَعَهُ أَشارَ الشَّيْخُ إِلى بِئْرٍ مَهْجورَةٍ، يَمُرُّ عَلَيْها في طَريقِهِ لِلْحُصولِ عَلى الماءِ مِنْ بِئْرٍ أُخْرى، فَيَروعُهُ ما يَسْمَعُهُ مِنْ أَصْواتٍ تَأْتي مِنْ قاعِها - فَرَغِبَ إِلَيْهِ «مُحَمَّد» في أَنْ يَصْحَبَهُ إِلَيْها مَتى أَشْرَقَ الصَّباحُ.

ذَهَبَ الإخْوَةُ مَعَ الشَّيْخِ إلى البِئْرِ، وَمالَ «مُحَمَّد» عَلى حافتِها، فَخُيِّلَ إلَيْهِ أنَّهُ يَسْمَعُ صَوْتًا آدَمِيًّا، فَطَلَبَ مِنَ الشَّيْخِ حَبْلًا طَويلًا، أعْطاهُ الشَّيْخُ إيّاهُ، وَانْصَرَفَ خائِفًا. قَرَّرَ «مُحَمَّد» النُّزولَ إلى البِئْرِ، وَطَلَبَ مِنْ أخَوَيْهِ أنْ يَرْبُطاهُ بِالحَبْلِ، وَيُدَلِّياهُ في البِئْرِ؛ لِيَنْزِلَ كَيْ يَسْتَكْشِفَ الأمْرَ، ثُمَّ يَشُدّاهُ لِيَصْعَدَ مِنْ جَديدٍ.

وَصَلَ «مُحَمَّد» إلى قاعِ البِئْرِ، فَوَجَدَ في أحَدِ جَوانِبِها فُتْحَةً كَبيرَةً، عَبَرَ مِنْها، فَوَجَدَ طَريقًا طَويلًا مُظْلِمًا مَشَى فيه. وَفَجْأةً سَمِعَ صَوْتَ غناءٍ يُشْبِهُ البُكاءَ وَالعَويلَ، فَاسْتَمَعَ جَيِّدًا، فَإذا هُوَ صَوْتُ فَتاةٍ تَحْكي قِصَّةَ اخْتِطافِها مِنْ حَديقَةِ والِدِها المَلِكِ، وَحَبْسِها في هَذِهِ البِئْرِ اللَّعينَةِ.

حاوَلَ «مُحَمَّد» أنْ يَتَعَرَّفَ عَلى الصَّوْتِ، فَلَمّا اقْتَرَبَ مِنْهُ وَجَدَ فَتاةً شابَّةً رائِعَةَ الجَمالِ، مَوْثوقَةً بِالحِبالِ. اِقْتَرَبَ مِنْها قَليلًا، وَطَمْأنَها، وَقالَ لَها إنَّهُ

سَمِعَ غِناءَها، وَتَوَجَّعَ لِبُكائِها، وَإِنَّهُ حَضَرَ لإِنْقاذِها مِمّا هِيَ فيهِ، وَإِعادَتِها إِلى والِدِها، الَّذي لَمْ تَرْقَأْ دُموعُهُ وَلَمْ تَجِفَّ مُنْذُ اخْتُطِفَتْ مِنَ الحَديقَةِ. قالَتْ لهُ إِنَّ أَحَدَ الأُمَراءِ خَطَفَها حينَ رَفَضَتْ خِطْبَتَهُ، وَأَبَتِ الزَّواجَ مِنْهُ، وَحَبَسَها في هَذِهِ البِئْرِ؛ لَعَلَّها تُذْعِنُ لَهُ، وَلَكِنَّها ما زالَتْ تَرْفُضُهُ، وَسَتَظَلُّ تَرْفُضُهُ مَهْما حَدَثَ.

فَكَّ «مُحَمَّد» قُيودَ الأَميرَةِ، وَطَلَبَ مِنْها أَنْ تَتْبَعَهُ حَتّى يَخْرُجَ بِها مِنْ هَذِهِ البِئْرِ. بَكَتِ الأَميرَةُ فَرَحًا وَشُكْرًا لِهَذا الشّابِّ الشُّجاعِ، وَخَلَعَتْ مِنْ يَدِها سِوارًا أَعْطَتْهُ لَهُ قائِلَةً:

«هَذا السِّوارُ واحِدٌ مِنِ اثْنَيْنِ، لَيْسَ لَهُما مَثيلٌ في العالَمِ. اِحْتَفِظْ بِهِ لَكَ وَسَأَحْتَفِظُ بِالآخَرِ، فَمَنْ يَدْري ماذا تُخَبِّئُ لَنا الأَيّامُ.»

شَكَرَها «مُحَمَّد» وَهَزَّ الحَبْلَ طالِبًا مِنْ أَخَوَيْهِ شَدَّهُ، وَرَبَطَ الفَتاةَ حَتّى تَصْعَدَ هِيَ أَوَّلاً، ثُمَّ يَتْبَعَها هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَعِنْدَما خَرَجَتِ الأميرَةُ مِنَ البِئْرِ انْبَهَرَ الأخَوانِ مِنْ شِدَّةِ جَمالِها، وَعَرَفا أنَّ أخاهُما قَدْ عَثَرَ عَلى ابْنَةِ المَلِكِ، فَأَخَذاها وَانْصَرَفا مُسْرِعَيْنِ وَتَرَكا «محمدًا» في قاعِ البِئْرِ.

بَدَأَ الأخَوانِ رِحْلَةَ العَوْدَةِ، وَهُما يُفَكِّرانِ: أَيُّهُما يَتَزَوَّجُ الأميرَةَ الجميلَةَ؟ ثُمَّ اتَّفَقا عَلى أنْ يَتَزَوَّجَها «أَحْمَد» فَهُوَ الأَكْبَرُ، عَلى أنْ يُكافَأَ «عَلِيّ» مُكافَأَةً ضَخْمَةً، وَيُعَيَّنَ في مَنْصِبٍ كَبيرٍ، يَضْمَنُ لَهُ الاسْتِقْرارَ بَقِيَّةَ حَياتِهِ.

بَقِيَ «مُحَمَّد» في قاعِ البِئْرِ، وَأَدْرَكَ خَطَرَ المَأزِقِ الَّذي أَصْبَحَ فيهِ، وَأنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ البِئْرِ قَبْلَ اكْتِشافِ هُروبِ الأميرَةِ، فَقَدْ يَفْقِدُ حَياتَهُ ثَمنًا لِمُساعَدَتِها عَلى الهَرَبِ.

وَبَيْنَما «مُحَمَّد» يُفَكِّرُ وَيَشْعُرُ بِاليَأسِ سَمِعَ صَوْتَ

الشَّيْخِ يُنادي عَلَيْهِ، وَيُدْلي حَبْلاً حَتّى يُخْرِجَهُ مِنْ هَذِهِ البِئْرِ. وَلَكِنَّ الشَّيْخَ كانَ واهِنًا ضَعيفًا، وَكانَ الأَمْرُ عَلَيْهِ شاقًّا، وَمَعَ ذَلِكَ اسْتَطاعَ بَعْدَ جَهْدٍ جَهيدٍ أَنْ يُخْرِجَ «محمدًا»، ثُمَّ سَقَطَ مِنَ الإِعْياءِ.



حَمَلَهُ «مُحَمَّد» إلى مَنْزِلِهِ، وَمَكَثَ بِجانِبِهِ عِدَّةَ أَيّامٍ يَعْتَني بِهِ – حَتّى اسْتَرَدَّ العَجوزُ صِحَّتَهُ، فَسَأَلَهُ «مُحَمَّد» كَيْفَ عَرَفَ بِوُجودِهِ في البِئْرِ؟ فَأَجابَهُ الشَّيْخُ:

«لَقَدْ كُنْتُ أُراقِبُكُمْ مِنْ بَعيدٍ، وَلَمّا رَأَيْتُ أَخَوَيْكَ يَرْحَلانِ، وَمَعَهُما الأَميرَةُ، فَهِمْتُ ما قاما بِهِ مِنْ عَمَلٍ دَنيءٍ، وَقَرَّرْتُ مُساعَدَتَكَ.»

شَكَرَهُ «مُحَمَّد» لإِنْقاذِهِ حَياتَهُ، وَوَدَّعَهُ وَمَضى عائِدًا إلى القَصْرِ.

في ذَلِكَ الوَقْتِ، كانَ «أَحْمَد» وَ «عَلِيّ» قَدْ وَصَلا وَمَعَهُما الأَميرَةُ المَفْقودَةُ، يَزْعُمانِ أَنَّهُما هُما اللَّذانِ عَثَرا عَلَيْها، وَأَنَّهُما يَجْهَلانِ مَكانَ «مُحَمَّد» الَّذي فُقِدَ في الطَّريقِ.

طابَتْ نَفْسُ المَلِكِ، وَتَبَدَّلَ حُزْنُهُ فَرَحًا، وَيَأْسُهُ أَمَلًا، وَازْدانَ القَصْرُ بِعَوْدَةِ الأَميرَةِ، وَابْتَهَجَتِ المَمْلَكَةُ بِابْتِهاجِ

المَلِكِ وَسُرورِهِ. وَلَمْ يَنْسَ المَلِكُ في غَمْرَةِ الأفْراحِ أنْ يُكافِئَ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ أعادا البَسْمَةَ إلى شَفَتَيْهِ، وَالغِبْطَةَ إلى قَلْبِهِ، فَسَألَهُما عَمّا يَطْلُبانِ. طَلَبَ «أَحْمَد» أنْ يَتَزَوَّجَ الأميرَةَ، وَطَلَبَ «عَلِيّ» المالَ وَالجاهَ وَالمَنْصِبَ الخَطيرَ.

وافَقَ المَلِكُ عَلى ما طَلَبا، وَلَكِنَّهُ اسْتَأذَنَهُما في أنْ يَعْرِفَ رَأيَ ابْنَتِهِ؛ فالعَروسُ لا بُدَّ مِنْ مُوافَقَتِها.

تَظاهَرَتِ الأميرَةُ بِالمُوافَقَةِ، لَكِنَّها اشْتَرَطَتْ أنْ يُقَدِّمَ لَها العَريسُ سِوارًا يُشْبِهُ السِّوارَ الَّذي تَلْبَسُهُ، فَإذا عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ فَلَنْ تَتَزَوَّجَهُ.

ظَنَّ الأخَوانِ أنَّ الأمْرَ سَهْلٌ لا عُسْرَ فيهِ، وَلَكِنَّهُما طافا بِصُيّاغِ المَدينَةِ واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ، فَلَمْ يُغْنِ أحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا، وَعَجَزوا جَميعًا عَنْ صُنْعِ سِوارٍ مِثْلِهِ.

وَبَيْنَما الأخَوانِ يَبْحَثانِ عَنِ السِّوارِ، وَيَجوبانِ المُدُنَ وَالقُرى؛ أمَلاً في الحُصولِ عَلَيْهِ - عادَ «مُحَمَّد» مُتْعَبًا

مَنْهوكًا، وَدَخَلَ عَلى المَلِكِ، فَأَنْبَأَهُ بِما حَدَثَ، وَقَصَّ عَلَيْهِ ما وَقَعَ مِنْ أَخَوَيْهِ مِنْ خِيانَةٍ وَغَدْرٍ. وَلَكِنَّ المَلِكَ لَمْ يُعَجِّلْ في الحُكْمِ، وَطَلَبَ مِنْ «مُحَمَّد» أَنْ يُقَدِّمَ الدَّليلَ، وَيَأْتِيَ بِالبُرْهانِ، الذي يَدْعَمُ أَقْوالَهُ، وَيُثْبِتُ ادِّعاءَهُ؛ فَقَدَّمَ «مُحَمَّد» السِّوارَ الَّذي يَحْمِلُهُ، وَالَّذي كانَتِ الأَميرَةُ قَدْ أَهْدَتْهُ إِلَيْهِ مُقابِلَ شَجاعَتِهِ وَجَسارَتِهِ.

فَرِحَ المَلِكُ بِصِدْقِ «مُحَمَّد» وَعَوْدَتِهِ، فَقَدْ كانَ لَهُ مُحِبًّا، وَبِهِ حَفِيًّا، وَيَرْجوهُ زَوْجًا لابْنَتِهِ، وَخَلَفًا لَهُ عَلى رَعِيَّتِهِ. وَلَمّا أَنْبأَ المَلِكُ الأَميرَةَ بِالخَبَرِ - رَقَصَتْ فَرَحًا وَحُبورًا، وَرَضِيَتْ بِهِ زَوْجًا؛ فَقَدْ كانَ هَذا هُوَ الرَّجُلَ الَّذي تَتَمَنّاهُ؛ لِما يَتَحَلّى بِهِ مِنْ شَجاعَةٍ وَمُروءَةٍ، وَصِدْقٍ وَوَفاءٍ.

عادَ الأَخَوانِ مِنْ رِحْلَةِ البَحْثِ المُضْنِيَةِ خائِبَيْنِ، فَوَجَدا المَدينَةَ تَموجُ بِالمَرَحِ وَالسُّرورِ: الزِّيناتُ مُعَلَّقَةٌ، وَالحَفَلاتُ مُقامَةٌ، وَالأَنْوارُ مُضاءَةٌ - فَظَنّا أَوَّلَ الأَمْرِ أَنَّ

الأميرَةَ قَدْ رَضِيَتْ بـ «أَحْمَد» زَوْجًا، وأنَّ المَلِكَ في انْتِظارِهِما، لِيُعْلِنَ إلَيْهِما قَبولَها. وَلَكِنْ كَمْ كانَتْ دَهْشَتُهُما بالِغَةً، وَالمُفاجَأَةُ عَلَيْهِما قاسِيَةً؛ عِنْدَما وَجَدا «محمدًا» عَريسًا!

لَمْ يَفْطِنْ أَحَدٌ لِوُجودِهِما، ولَمْ يَعْلَمِ المَلِكُ بِوُصولِهِما، فَانْتَهَزَا غَفْلَةَ الجَميعِ، وَانْطَلَقا في طَريقٍ يَعْرِفونَ بِدايَتَهُ، وَلا يُبْصِرونَ نِهايَتَهُ - طَريقِ التَّشَرُّدِ وَالضَّياعِ!

اِبْتَعَدَ الأَخوانِ عَنِ المَدينَةِ؛ مَشَيا حَتّى تَعِبَتْ أَقْدامُهُما، وَأَحَسّا بِالضَّعْفِ الشَّديدِ، فَجَلَسا تَحْتَ شَجَرَةٍ في الطَّريقِ، وَما لَبِثا أَنْ غَلَبَهُما النُّعاسُ.

أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ صافِيَةً ساطِعَةً، وَلَفَحَتْ وَجْهَيْهِما بِحَرارَتِها، فَاسْتَيْقَظَ «أَحْمَد» وَأَيْقَظَ أخاهُ، وَراحَ يَنْظُرُ كُلٌّ مِنْهُما إلى الآخَرِ في صَمْتٍ رَهيبٍ.. ثُمَّ قالَ «أَحْمَد»:

«ما رَأْيُكَ، يا «عَلِيّ» فيما صَنَعْناهُ بِأَخينا

«مُحَمَّد»؟ لَقَدْ عَطَفَ أبوهُ العَمُّ «حسن» عَلَيْنا وَعَلى أُمِّنا، وَضَمَّنا إلى وَلَدِهِ «مُحَمَّد»، وَأَوْصانا جَميعًا بِبعْضِنا، وَنَفَّذَ «مُحَمَّد» وَصِيَّتَهُ، وَبَحَثَ عَنّا، وَآوانا إِلَيْهِ.. فَماذا صَنَعْنا لَهُ؟»

أجابَ «عَلِيّ» في حُزْنٍ وَأَسَفٍ:

«لَقَدْ غَدَرْنا بِهِ، وَأَنْكَرْنا مَعْروفَهُ وَمَعْروف أبيهِ.. وَهَذا جَزاءُ ما صَنَعْناهُ!»

قالَ «أحمد»: «إِنَّ نَفْسي تَلومُني لَوْمًا شَديدًا، وَإِنَّ ضَميري يُعَذِّبُني عَذابًا أَليمًا، وَما أَظُنُّ المَلِكَ وَ«مُحَمَّد» يَقْبَلانِ أَسَفَنا، وَيَصفَحانِ عَنْ غَدْرِنا.. فَلْنَتَّجِهْ إلى اللهِ فَهُوَ الغَفورُ الرَّحيمُ، وَلْنُعاهِدْهُ عَلى أَنْ نَبْدَأَ في الحَياةِ صَفْحَةً جَديدَةً طاهِرَةً.

الفَقيرُ وَالمَلاكُ

فِي بِلادٍ بَعيدَةٍ، حِكايَتُها غَريبَةٌ، كانَ يَعيشُ سُلْطانٌ عَنيدٌ جَبّارٌ، يَحْكُمُ البِلادَ بِالحَديدِ وَالنّارِ، لا يَسْمَحُ لأَحَدٍ بِمُعارَضَتِهِ، وَلا يُطيقُ أَنْ يُجادِلَهُ أَحَدٌ في رَأْيِهِ أَوْ يُخالِفَ عَنْ أَمْرِهِ.

وَكُلَّما ازْدادَ السُّلْطانُ عُتُوًّا وَفَسادًا ازْدادَ الشَّعْبُ سُخْطًا وَعِنادًا، فَقَرَّرَ السُّلْطانُ قَتْلَ جَميعِ الشُّيوخِ الَّذينَ يَعيشونَ في بِلادِهِ؛ لأَنَّهُمْ يَمْلِكونَ الحِكْمَةَ وَصَوابَ الرَّأْيِ، وَيُشْعِلونَ ثَوْرَةَ الشَّعْبِ بِآرائِهِمْ وَأَفْكارِهِمْ.

وَبَدَأَ رِجالُهُ يَبْطِشونَ بِالشُّيوخِ وَكِبارِ السِّنِّ، يَبْحَثونَ عَنْهُمْ في كُلِّ مَكانٍ وَيَقْتُلونَهُمْ.

وَكانَ «حسن» شابًّا فَقيرًا يَعيشُ مَعَ والِدِهِ المُسِنِّ؛

فَخَشِيَ عَلَيْهِ بَطْشَ الحاكِمِ، وأَخْفاهُ في مَكانٍ مَهْجورٍ بَعيدًا عَنْ عُيونِ النّاسِ.

وَلَمّا تَأَكَّدَ السُّلْطانُ مِنْ مَوْتِ جَميعِ الشُّيوخِ - هَدَأَ بالُهُ، واطْمَأَنَّ خاطِرُهُ؛ مُعْتَقِدًا أَنَّهُ قَضى بِذَلِكَ عَلى الحِكْمَةِ وَسَدادِ الرَّأْيِ قَضاءً مُبْرَمًا، وَلَنْ يَجْرُؤَ أَحَدٌ عَلى عِصْيانِهِ وَالخُروجِ عَلَيْهِ.

لَكِنَّ السُّلْطانَ ما لَبِثَ أَنْ تَحَرَّكَ في نَفْسِهِ عامِلُ الخَوْفِ وَخشِيَ ثَوْرَةَ الشَّبابِ، فَأَمَرَ رِجالَهُ بِاسْتِدْعائِهِمْ، وَطَلَبَ مِنْهُمُ القِيامَ بِإِصْلاحِ أَرْضٍ بورٍ بَعيدَةٍ، تَقَعُ في أَطْرافِ البِلادِ، مُحاوِلاً إِقْناعَهُمْ بِأَنَّ هَذا العَمَلَ عَمَلٌ وَطَنِيٌّ جَليلٌ، سَيَعودُ بِالخَيْرِ والبَرَكاتِ عَلى البِلادِ، وَيَزيدُ مِنْ دَخْلِهِمْ وثَرَواتِهِمْ.

كانَ هَذا العَمَلُ المُضْني يَمْتَصُّ طاقَةَ الشَّبابِ، وَيَسْتَغْرِقُ وَقْتَهُمْ، فَلَمْ يَعُدْ هُناكَ وَقْتٌ لِلتَّفْكيرِ في حالِ البِلادِ وَشُؤونِ الرَّعِيَّةِ.

كانَ «حسن» يَذْهَبُ كُلَّ صَباحٍ مَعَ رِفاقِهِ مِنَ الشَّبابِ، وَيَعودُ آخِرَ النَّهارِ، مُنْهَكَ القُوى مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ وَالإرْهاقِ، فَيَسْتَريحُ قَليلاً، ثُمَّ يَذْهَبُ في الخَفاءِ لِزِيارَةِ والِدِه، وَالاطْمِئْنانِ عَلَيْهِ، وَيَحْمِلُ إِلَيْهِ الطَّعامَ وَالشَّرابَ.

وَفي ذَلِكَ المَساءِ، لاحَظَ الأبُ شُرودَ «حسن» وَحُزْنَهُ، فَسَأَلَهُ: «ماذا بِكَ، يا بُنَيَّ؟ وَمَا الَّذي يُحْزِنُكَ كُلَّ هَذا الحُزْنِ؟»

«في الواقِعِ، يا أبي، أنا حَزينٌ عَلى ما آلَ إِلَيْهِ حالُنا نَحْنُ الشَّبابَ، فَنَحْنُ نَبْذُلُ الوَقْتَ وَالجَهْدَ، دونَ أَنْ نَجْنِيَ مِنْ وَرائِهِما ثَمَرَةً؛ فَهَذِهِ الأرْضُ البورُ لَنْ يُجْدِيَ فيها الاسْتِصْلاحُ؛ فَهِيَ أَرْضٌ صَخْرِيَّةٌ وَعْرَةٌ. وَكَمْ يُحْزِنُني إِهْدارُ طاقاتِنا في هَذا العَمَلِ المُضْني دونَ فائِدَةٍ!»

«اِسْمَعْ، يا بُنَيَّ، إِنَّني أَعْرِفُ أَنَّ السُّلْطانَ يَقومُ بِزِيارَتِكُمْ في مَوْقِعِ العَمَلِ مِنْ حينٍ لآخَرَ، لِيَطْمَئِنَّ عَلى

سَيْرِ العَمَلِ. فَإذا حَضَرَ إِلَيْكُمْ في المَرَّةِ القادِمَةِ تَظاهَرْ بِأَنَّكَ تَأْكُلُ شَيْئًا، وَدَعْهُ يَراكَ، فَإذا سَأَلَكَ عَمّا تَأْكُلُهُ، قُلْ لَهُ إِنَّني آكُلُ مِمّا نَحْصُدُهُ بِأَيْدينا. وَانْتَظِرْ إجابَتَهُ.»

سَمِعَ «حسن» نَصيحَةَ الأَبِ، وَفي أَوَّلِ زِيارَةٍ قامَ بِها السُّلْطانُ لِمَوْقِعِ العَمَلِ – نَفَّذَ وَصِيَّةَ أَبيهِ، فَسَأَلَهُ السُّلْطانُ في دَهْشَةٍ: «ماذا تَأْكُلُ؟»

«آكُلُ ما نَزْرَعُهُ وَنَحْصُدُهُ، يا سَيِّدي.»

«هَذِهِ الكَلِماتُ لَيْسَتْ كَلِماتِكَ، إِنَّها كَلِماتُ شَيْخٍ حَكيمٍ، فاذْهَبْ في الحالِ، وأَحْضِرْهُ لي، وَإلا قَطَعْتُ رأْسَكَ.»

ذَهَبَ «حسن» مُحاطًا بِالجُنودِ لإِحْضارِ والِدِهِ، وَهُوَ أَشَدُّ ما يَكونُ حُزْنًا وَخَوْفًا عَلى مَصيرِهِ.

فَلَمّا مَثُلَ الأَبُ أمامَ السُّلْطانِ، سَأَلَهُ: «أَيْنَ كُنْتَ، أَيُّها الشَّيْخُ، يَوْمَ تَنْفيذِ الحُكْمِ بِإِعْدامِ الشُّيوخِ؟»

«لَقَدْ كُنْتُ، يا سَيِّدي، في سَفَرٍ بَعيدٍ، وَفي مُهِمَّةٍ عاجِلَةٍ، عُدْتُ مِنْها بَعْدَ تَنْفيذِ القانونِ.»

«أَيَّةُ مُهِمَّةٍ؟»

«كُنْتُ أَحْضُرُ زَواجَ الغُرابِ مِن ابْنَةِ الحِدَأَةِ. لَقَدِ اخْتَلَفا عَلى المَهْرِ، وَطَلَبا مَشورَتي؛ فَفَصَلْتُ في الأَمْرِ، وَتَمَّ الزَّواجُ.»

«وَلِماذا اخْتَلَفا؟»

«إِنَّ الحِدَأَةَ اشْتَرَطَتْ عَلى الغُرابِ أَنْ يَكونَ مَهْرُ ابْنَتِها خَمْسينَ مَدينَةً خَرِبَةً.»

«مَهْرُ ابْنَتِها خَمْسونَ مَدينَةً خَرِبَةً! وَهَلْ وَجَدَ الغُرابُ ذَلِكَ؟»

«ما أَكْثَرَ هَذِهِ المُدُنَ، يا مَوْلايَ! فَكُلُّ مَدينَةٍ يَحْكُمُها ظالِمٌ لا بُدَّ أَنْ تَكونَ خَرِبَةً!»

ثارَ السُّلْطانُ ثَوْرَةً عارِمَةً، وَاسْتَشاطَ غَيْظًا وَحَنَقًا،

وَأَمَرَ بِقَتْلِ الشَّيْخِ في الحالِ، وَحَبْسَ «حسن» في سِجْنِ المَدينَةِ.

عاشَ «حسن» في السِّجْنِ وَحيدًا مُهْمَلًا، تَخْنُقُهُ قُضبانُهُ، وَتَسْتَبِدُّ بِهِ وَحْشَتُهُ، يُفَكِّرُ في حالِهِ، وَيَتَأَلَّمُ أَلَمًا بالِغًا لِما حَدَثَ لَهُ، وَما يَحْدُثُ لأَبْناءِ بَلَدِهِ. وَذاتَ يَوْمٍ وَهُوَ في قِمَّةِ مُعاناتِهِ، وَشِدَّةِ ضيقِهِ، وَذُرْوَةِ غَضَبِهِ - رَمَى بِالطّاقِيَّةِ الَّتي عَلى رَأسِهِ بَعيدًا في الهَواءِ، وَكَمْ كانَتْ دَهْشَتُهُ بالِغَةً عِنْدَما رَآها تَعودُ، وَتَسْتَقِرُّ عَلى رَأْسِهِ، فَرَماها مَرَّةً ثانِيَةً وثالِثَةً، فَكانَتْ تَعودُ في كُلِّ مَرَّةٍ، غَيْرَ أَنَّهُ في المَرَّةِ الأخيرَةِ رَأى نورًا يَشُقُّ الحائِطَ، وَظَهَرَ لَهُ رَجُلٌ، وَسَأَلَهُ لِماذا يَرْمي بِطاقِيَّتِهِ هَكَذا؟

«لَقَدْ ضاقَ بِيَ الحالُ، يا سَيِّدي. لَقَدْ فَقَدْتُ كُلَّ شَيْءٍ حَتّى الأمَلَ، وَلَمْ أَعُدْ أَمْلِكُ غَيْرَ مَلابِسي، وَهِيَ كُلُّ ما تَبَقّى لي في هَذِهِ الدُّنْيا، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنْها - أَيْضًا - لِشِدَّةِ غَضَبي وَحَنَقي.»



هَدَّأَ الرَّجُلُ مِنْ ثَوْرَةِ «حسن»، وَرَجاهُ أَنْ لا يَتْرُكَ اليَأْسَ يُسَيْطِرُ عَلى نَفْسِهِ، وأَنْ يَبْذُلَ كُلَّ طاقَتِهِ، وَيَسْتَثْمِرَ كُلَّ قُوَّتِهِ لِلْخُروجِ مِنْ سِجْنِهِ، وَأَنْ يَحْتالَ لِذَلِكَ ما وَسِعَتْهُ الحيلَةُ. فَإذا تَمَكَّنَ مِنْ ذَلِكَ – فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَلْحَقَ بِهِ في المَكانِ وَالزَّمانِ اللَّذَيْنِ حَدَّدَهُما لَهُ بِدِقَّةٍ.

أَمامَهُ أُسْبوعٌ واحِدٌ، سَبْعَةُ أَيّامٍ كامِلَةٍ، لِيَلْحَقَ بِهِ عِنْدَ الجَبَلِ الشَّرْقِيِّ في طَرَفِ المَدينَةِ، في تَمامِ السّاعَةِ التّاسِعَةِ

مَساءً. ثُمَّ اخْتَفى الرَّجُلُ فَجْأَةً كَما ظَهَرَ فَجْأَةً.

لَمْ يَكُنْ «حسن» مُتَيَقِّنًا مِمّا رَآهُ، هَلْ هُوَ حُلْمٌ أَمْ واقِعٌ؟ وَلَكِنَّهُ قَرَّرَ المُحاوَلَةَ: كَيْفَ يَتَخَلَّصُ مِنَ السِّجْنِ لِيَلْحَقَ بِهَذا الزّائِرِ الغَريبِ؟ كَيْفَ وَالأَغْلالُ في يَدَيْهِ وَالقُضْبانُ تُحيطُ بِهِ؟

قَضى «حسن» لَيْلَتَهُ يُفَكِّرُ، وَعِنْدَ طُلوعِ الشَّمْسِ كانَ قَدْ تَوَصَّلَ إلى قَرارٍ وَإلى خُطَّةٍ سَتُساعِدُهُ عَلى الخُروجِ مِنْ سِجْنِهِ.

بَدَأَ «حسن» يَتَقَرَّبُ مِنَ السَّجّانِ، وَيَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ بِشَجَنٍ وَحُزْنٍ، مُحاوِلاً اسْتِعْطافَهُ وَضَمَّهُ إلى جانِبِهِ.

وَبَدَأَ السَّجّانُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ يَسْتَمِعُ إلى كَلامِ «حسن»، وَيَشْعُرُ بِضيقٍ هُوَ الآخَرُ وَقَلَقٍ عَلى أَحْوالِ النّاسِ وَالبِلادِ.

كانَ حَديثُ «حسن» يَدور حَوْلَ جَبَروتِ السُّلْطانِ، وَظُلْمِهِ وَقَسْوَتِهِ، وَعَنْ حالِ الشَّعْبِ وَمُعاناتِهِ. وَكانَ

هذا الحَديثُ مُطابِقًا لِلْواقِعِ؛ مِمّا جَعَلَ السَّجّانَ يَتَعاطَفُ مَعَهُ، وَنَمَتْ بَيْنَهُما مَوَدَّةٌ، أَخَذَتْ تَكْبُرُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، حَتّى وافَقَ عَلى مُساعَدَةِ «حسن» عَلى الهَرَبِ، وَكانَ ذَلِكَ في اليَوْمِ السّابِعِ والأخيرِ مِنَ المُهْلَةِ التّي حَدَّدَها لَهُ الزّائِرُ الغَريبُ.

اِسْتَطاعَ «حسن» الهُروبَ بِمُساعَدَةِ السَّجّانِ، وَكانَ ذَلِكَ مَساءَ اليَوْمِ السّابِعِ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ ساعاتٍ قَليلَةٍ عَلى مَوْعِدِهِ مَعَ الرَّجُلِ الغَريبِ.

أَسْرَعَ «حسن» في سَيْرِهِ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَجْتازَ البِلادَ مِنْ غَرْبِها إلى شَرْقِها، كَما أَنَّهُ يَخْشى افْتِضاحَ أَمْرِهِ، وَإِعادَتَهُ إلى السِّجْنِ. وَفي تَمامِ التّاسِعَةِ كانَ بِجِوارِ الجَبَلِ الشَّرْقِيِّ في أَطْرافِ المَدينَةِ، فَوَجَدَ أَمامَهُ الغَريبَ جالِسًا في انْتِظارِهِ، كَما لَوْ كانَ مُتَأَكِّدًا مِنْ قُدومِهِ.

أَلْقى «حسن» عَلى الغَريبِ التَّحِيَّةَ، وَسَأَلَهُ الغَريبُ إِنْ كانَ يُوافِقُ عَلى مُرافَقَتِهِ في سَفَرٍ طَويلٍ دونَ أَنْ يَسْأَلَهُ

عَنْ شَيْءٍ، حَتّى يُخْبِرَهُ بِهِ، مَهْما شاهَدَ مِنْ عجائِبَ، وَرَأى مِنْ غَرائِبَ، فأجابَهُ «حسن»:

«نَعَمْ، أوافِقُ، يا سَيِّدي، فَلَمْ يَعُدْ لي في هَذِهِ البِلادِ مَكانٌ؛ سَأرافِقُكَ - إذًا - في سَفَرِكَ هَذا الطَّويلِ دونَ أنْ أثيرَ مَعَكَ أيَّ سُؤالٍ.»

«وَلَكِنْ يَجِبُ أنْ تَعْلَمَ، يا صَديقي، أنَّهُ لا يُمْكِنُكَ التَّراجُعُ، فَإذا بَدَأتَ السَّفَرَ وَجَبَ عَلَيْكَ أنْ تَقْطَعَ الشَّوْطَ إلى نِهايَتِهِ.»

«مُوافِقٌ.»

بَدَأَ «حسن» وَالغَريبُ رِحْلَتَهُما الطَّويلَةَ. وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي وَصَلا إلى طَريقٍ ضَيِّقٍ، عَلى جانِبِهِ الأيْمَنِ حُقولٌ خَضْراءُ يانِعَةٌ، مُمْتَلِئَةٌ بِالأعْشابِ، يَرْعى فيها قَطيعٌ مِنَ البَقَرِ، وَلَكِنَّهُ يَبْدو هَزيلاً ضَعيفًا يَكادُ يَكونُ خالِيًا مِنَ اللَّحْمِ وَالشَّحْمِ!

وَعلى يَسارِ الطَّريقِ حُقولٌ تكادُ تَكونُ خالِيَةً مِنَ العُشْبِ، وَما بَقِيَ فيها مِنْ عُشْبٍ اصْفَرَّ لَوْنُهُ، حَتّى أَوْشَكَ أَنْ يَكونَ هَشيمًا، وَلَكِنَّ الأَبْقارَ الَّتي تَرْعى بِها سَمينَةٌ، مُمْتَلِئَةٌ شَحْمًا وَلَحْمًا! هَمَّ «حسن» أَنْ يَسْأَلَ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ تَذَكَّرَ شَرْطَ الغَريبِ، فَسَكَتَ على مَضَضٍ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ.

وَمَضَيا في طَريقِهِما الطَّويلِ، حَتّى وَصَلا إلى قَناةٍ عَميقَةٍ بِها ماءٌ، فَنَزَعَ الغَريبُ شَعْرَةً مِنْ رَأْسِهِ، وَوَضَعَها عَلى الأَرْضِ، فَإِذا بِها تَتَحَوَّلُ إِلى قَنْطَرَةٍ، عَبَرا عَلَيْها إِلى الضَّفَّةِ الأُخْرى لِلْقَناةِ، وَاسْتَكْمَلا سَيْرَهُما، حَتّى وَصَلا إِلى حَقْلٍ بِهِ أَشْجارُ فاكِهَةٍ، فَرَأى «حسن» رَجُلًا يَتَسَلَّقُ الأَشْجارَ، وَيَقْطِفُ الثِّمارَ النّاضِجَةَ كَما يَقْطِفُ الثِّمارَ التّالِفَةَ وَالعَطْبَةَ، ثُمَّ يَنْزِلُ وَيَعودُ لِيَتَسَلَّقَ الأَشْجارَ مِنْ جَديدٍ إِلى ما لا نِهايَةَ. هَمَّ «حسن» أَنْ يَسْأَلَ لِماذا لا يَقْطِفُ الرَّجُلُ الثِّمارَ النّاضِجَةَ الجَيِّدَةَ فَقَطْ؟ وَلكِنَّهُ تَذَكَّرَ

الشَّرْطَ الَّذي فَرَضَهُ الغَريبُ، فَسَكَتَ على مَضَضٍ، وَلَمْ يَنْبِسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ.

وَبَعْدَ ساعاتٍ مِنَ السَّيْرِ وَجَدا رَجُلًا بِجِوارِ بِئْرٍ يَمْلأُ دَلْوَهُ حَتّى نِهايَتِهِ؛ لِيَصُبَّهُ في أَرْضٍ خَضْراءَ، ثُمَّ يَمْلأُ قَليلًا لِيَصُبَّهُ في أَرْضٍ جَرْداءَ. وَهَمَّ «حسن» كَذَلِكَ أَنْ يَسْأَلَ لِماذا يُعْطي الرَّجُلُ الأَرْضَ الخَضْراءَ ماءً وَفيرًا، وَيَبْخَلُ على الجَرْداءِ بِالماءِ؟ وَلَكِنَّهُ تَذَكَّرَ الشَّرْطَ لِلْمَرَّةِ الثّالِثَةِ؛ فَسَكَتَ عَلى مَضَضٍ وَلَمْ يَسْأَلْ.

اِسْتَكْمَلَ الرَّجُلانِ سَيْرَهُما، حَتّى وَصَلا إلى جَماعَةٍ مِنَ النّاسِ يَشُدّونَ حَبْلًا، كُلُّ واحِدٍ يَشُدُّهُ في اتجاهٍ فَلا يَتَحَرَّكُ الحَبْلُ، فَقالَ «حسن» في نَفْسِهِ: «إِنَّهُمْ يَسْتَطيعونَ أَنْ يَجْتَمِعوا، وَيَشُدّوا الحَبْلَ في اتِّجاهٍ واحِدٍ، فَيَتَحَرَّكَ كَما يُريدونَ.»

وَبَيْنَما هُوَ مُسْتَغْرِقٌ في تَفْكيرِهِ - وَجَدَ أَمامَهُ فَجْأَةً قَصْرًا فَخْمًا، اخْتَفى الغَريبُ بِداخِلِهِ، وَحاوَلَ «حسن»

أن يَتْبَعَهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ بابًا أَوْ مَدْخَلًا يَدْخُلُ مِنْهُ إلى القَصْرِ، فَجَلَسَ بِجِوارِ حائِطِ القَصْرِ، وَأَدْرَكَهُ النَّوْمُ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ فَنامَ.

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي وَجَدَ الغَريبَ أمامَهُ يَحْمِلُ صُرَّةً كَبيرَةً، وَيُعْطيها لَهُ قائِلاً: «لَقَدْ نَجَحْتَ في الامْتِحانِ، وَنَفَّذْتَ الشُّروطَ. خُذْ - إذًا - هَذِهِ المُكافَأَةَ الَّتي سَتُعينُكَ عَلى بِدايَةِ حَياةٍ جَديدَةٍ في أَيِّ مَكانٍ تُريدُهُ، فَأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ. وَهَذا فِراقٌ بَيْني وَبَيْنَكَ.»

«شُكْرًا لَكَ، يا سَيِّدي، وَلَكِنْ ما رَأَيْتُهُ يَشْغَلُني كَثيرًا. ألا تَسْتَطيعُ أَنْ تُفَسِّرَهُ لِيَ الآنَ، وَقَدْ نَجَحْتُ في الإمْساكِ عَنَ السُّؤالِ طَوالَ هَذِهِ المُدَّةِ؟»

«حَسَنًا، يا صَديقي، سَأُفَسِّرُ لَكَ: إنَّ الأَبْقارَ السَّمينَةَ في الحُقولِ الجَرْداءِ هُمُ الفُقَراءُ في هَذِهِ الدُّنيا، الَّذينَ يَكْتَفونَ بِالقَليلِ دونَ شَكْوى أو ضَجيجٍ، وَالأَبْقارَ النَّحيلَةَ في الحُقولِ الخَضْراءِ اليانِعَةِ هُمُ الأَغْنِياءُ في هَذِهِ

الدُّنْيا، الَّذين لا يَكْتَفونَ بِشَيْءٍ، مَهْما زادَتْ ثَرواتُهُمْ وَكَثُرَتْ. أمّا الرَّجُلُ الَّذي يَقْطِفُ الثِّمارَ الجَيِّدَةَ والتّالِفَةَ– فَهُوَ «عِزرائيل» يَقْبِضُ روحَ الخَيِّرِ وَالشِّرّيرِ دون تَفْرِقَةٍ بَيْنَهُما. وَالرَّجُلُ الَّذي يُعْطي الماءَ لِلأَرْضِ الخَضْراءِ، وَيَبْخَلُ عَلى الأَرْضِ الجَرْداءِ بِالماءِ، رَغْمَ حاجَتِها إِلَيْهِ – هُوَ الرِّزْقُ الَّذي يُعْطيهِ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ كَما يَشاءُ.

«وَأخيرًا، يا صَديقي، النّاسُ الَّذينَ يَشُدّونَ الحَبْلَ كُلُّ واحِدٍ في اتِّجاهٍ هُمُ النّاسُ في هَذِهِ الدُّنْيا، يَتكالَبونَ عَلَيْها، كُلُّ واحِدٍ يُحاوِلُ أنْ يَحْصُلَ عَلى خَيْراتِها لِنَفْسِهِ، في حين أَنَّهُ لَوْ ساعَدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَاجْتَمَعوا عَلى الخَيْرِ؛ فَسَيَحْصُلُ كُلُّ واحد منهُمْ عَلى نَصيبِهِ مِنْها.

وَالآنَ، اِمْضِ في طَريقِكَ، يا صَديقي، وَلا تَنْظُرْ خَلْفَكَ أَبَدًا. وَداعًا.. وَداعًا، يا صَديقي.»

شَكَرَ «حسن» الرَّجُلَ، وَمَضى في طَريقِهِ قُدُمًا،

يَبْذُلُ أَقْصى جَهْدِهِ، وَيَعْمَلُ في دَأْبٍ وَمُثابَرَةٍ، دونَ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا، أَو يَقْسُوَ عَلى أَحَدٍ؛ فَقَدْ ذاقَ مَرارَةَ الظُّلْمِ، وَكابَدَ أَهْوالَ العُنْفِ؛ فَكانَ كَثيرَ العَطْفِ عَلى البُؤَساءِ، دائِمَ البِرِّ لِلضُّعَفاءِ، يَرْعَى حَقَّ اللهِ فيما أَعْطاهُ مِنْ مالٍ، كَما يَرْعى حَقَّ العِبادِ.

وَبارَكَ الله لَهُ فيما أَعْطاهُ، فَطابَتْ لَهُ الحَياةُ، وَعاشَ يَنْعَمُ بِأَسْرَةٍ مُسْتَقِرَّةٍ هادِئَةٍ، يَسْعَدُ أَفْرادُها بِالحُبِّ الَّذي يَجْمَعُ بَيْنَ القُلوبِ، وَالمَوَدَّةِ الصّافِيَةِ الَّتي تَمْلأُ النُّفوسَ.

الينابيع تَتفجّر من التُّراث العربيّ الأصيل، ومِنَ السِّيرِ الشَّعبيَّةِ الغَنيَّة، ومِنَ الحِكاياتِ الشَّعبيةِ العَربيَّةِ؛ لتُصوِّرَ نماذجَ مُضيئةً مِن تُراثِنا، وتعرِض قِيمًا مُشرقةً في حياتِنا: تَمزج بين الجِدِّ، والفُكاهةِ في لُغةٍ هادئةٍ راقيةٍ: لا تعلو فتعوق القارئ وتصدّه ولا تسِفُّ فتهبط بذوقِه ومستواه، وإنما تمتّع وجدانَه وقلبه، وتُثري فِكرَه وعقلَه.

الينابيع

مكتبة لبنان ناشرون
زقاق البلاط ص.ب: ١١ - ٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء وموزّعون في جميع أنحاء العالم

